

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
نَحْمَدُهُ وَنُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ \* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

مِنْ رَحْمَنَ

بِقَلْمِ

سیدنا مرزا غلام احمد القادیانی  
الإمام المهدي والمسیح الموعود علیہ السلام

الشَّرْكَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ المَدْرُودَةُ

اسم الكتاب: منن الرحمن

الطبعة الحديثة: ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م

## ***Minanur-Rahmān***

*By: Hadrat Mirzā Ghulām Ahmād* (Peace be on him), *the Promised Messiah and Mahdi, Founder of the Ahmadiyyah Muslim Jamā‘at.*

© Al-Shirkatul Islamiyyah Limited

First Published in UK in 2010 by:

Al-Shirkatul Islamiyyah Limited

Islamabad

Sheephatch Lane

Tilford, Surrey GU10 2AQ

United Kingdom

Printed in UK at:

Raqeem Press

Tilford

**ISBN:** 1 85372 870 5

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

فَلَمَّا هَبَطَ الْجَنُونُ

جَنْمِينَ

عَرَبِيٌّ كَوْاْمِ الْأَلْسُنِ شَابَتْ كِيَامِكِيَّ

تَصْيِيفٌ طَبِيفٌ حَضَرَتْ مِنْ غَلَامٍ أَحْمَدَتْ مَوْعِدَ عَلِيَّةَ مَلِيمَ

بِإِجازَتِ حَضَرَتْ تَلَاقِيَتِهِتَّ الْثَّانِي أَيَّهُهُ الْمَدِينَةُ نَصِيرُ الْعَرَبِيَّةِ

مِنْبَرِكَ بِكَرِّ دُوَّمَهُ وَأَسْمَانِهِ قَدَّامَهُ شَارِكَهُ

٢٠ - جُون ١٩٢٢ء - تَعْدَد - ١٠٠٠ - سَلَامَهُ

صُورَةُ غَلَافِ الطَّبْعَةِ الْأُولَى لِهَذَا الْكِتَابِ

بسم الله الرحمن الرحيم  
نحمده ونصلی علی رسوله الکریم

## كلمة الناشر

هذا الكتاب يبحث في أمر عظيم؛ وهو إثبات أن اللغة العربية هي أُمّ اللغات كلها.. بمعنى أنها أُولّ لغة علّمها الله تعالى الإنسان بالوحى والإلهام، ومنها تفرعت اللغات الأخرى بمشيئة الله. لقد قام سيدنا المسيح الموعود والإمام المهدى ع بتأليف هذا الكتاب بتوجيه من الله تعالى في وقت كان الإسلام فيه عرضة لسهام الأعداء، ولم يكن المسلمون قادرين على الدفاع عنه، فجاء كشفه ع عن لثام هذه الحقيقة الكبرى آيةً على صدق الإسلام وعلوّ مرتبة القرآن على سائر الصحف والأديان.

وتكمّن أهمية هذا البحث في أنه يُثبت تلقائياً أن القرآن هو الوحي الحرجي الوحيد الكامل من الله تعالى، وأن اللغة العربية هي لغة الفطرة الإنسانية الأصلية وهي الوحيدة القادرة على تفصيل الإلهيات وعلوم الهدایة للإنسان بكلمات وجیزة شاملة مذهله، ولذلك اختارها الله تعالى لينزل بها أُمّ الكتاب.. القرآن الكريم.

وقد سار بعض خدام المسيح الموعود ع على منهجه الذي وضعه لإثبات أن اللغة العربية هي أُمّ الألسنة، غير أن الذي نال شرف البحث الشامل والمفصل هو الحامى الفاضل الشيخ محمد أَحمد

مظہر - وہ ابن الصحابی الکبیر منشی ظفر احمد الکفور تکلیوی صلی اللہ علیہ وساتھی - الی کی طوال حیاتہ عاکفًا علی دراسۃ اُشہر لغات العالم کالانگلیزیہ والالمانیہ واللاتینیہ والفرن西ہ والصینیہ والفارسیہ والہندیہ والسنسکریتیہ، وحقّ نجاحا باہرا، إذ اُثبٰت من خلال عشرين ألف کلمۃ من اکثر من أربعين لغۃ من هذه اللغات أن جذورها تعود إلى العربية.

ثمة أمور لا بد من التنويه إليها، وهي:

١ - لقد بدأ المسيح الموعود صلی اللہ علیہ وساتھی بتألیف هذا الكتاب عام ١٨٩٥، وأنهى مقدمته في ذلك العام، وذكر أن هذا الكتاب سيحتوي على مقدمة وأبواب وختمة، ولكنه صلی اللہ علیہ وساتھی توفي قبل أن يکمله، حيث صُرِفَ إلى أمورٍ كثيرة أخرى، وهذا لم يُنشر في عهده، بل ظلّ كما هو حتى نُشر في عام ١٩٢٢ - زمن خليفته الثاني صلی اللہ علیہ وساتھی - وحيث إن المسيح الموعود صلی اللہ علیہ وساتھی لم يراجعه، فقد بقیت فيه أخطاء النسّاخ، التي لم تُشیرْ إليها في الحواشی كما فعلنا في كثيرٍ من كتبه صلی اللہ علیہ وساتھی.

وكان صلی اللہ علیہ وساتھی قد كتب بعض أجزاء الكتاب بالأردية، فترجمناها وألحقناها بالنص العربي مع الإشارة إلى ذلك.

٢ - اعتمدنا في إخراج هذا الكتاب على طبعته الأولى المحفوظة حالیاً في مکتبۃ "الخلافة" المکتبۃ المركزیہ للجماعۃ بربوہ، باکستان.

٣ - ثمة هوامش وضعها سيدنا أحمد الشافعى بنفسه، وكتب - عموماً - عند نهايتها: "منه" أي من المؤلف.

٤ - وهناك بضعة هوامش أخرى قد أضافتها اللجنة العاملة على إخراج هذه الطبعة، وقد ميّزت عن الهوامش الأصلية بالخط المائل.

٥ - إن أرقام الآيات القرآنية وأسماء سورها لم ترد في الأصل بل أُضيفت من قبل الناشر في الهاشم. علماً أن أرقام الآيات تبدأ باعتبار البسملة آية أولى من كل سورة وردت فيها.

ولا يسعنا هنا إلا أن نشكر ونطلب الدعاء للذين ساهموا في إخراج هذه الطبعة، وهم السادة الأفضل: مصطفى ثابت، قيم أبو دقة، هاني طاهر، خالد عزام، سيد عبد الحي شاه، جميل الرحمن رفيق، مرتضى محمد الدين ناز، رانا تصور أحمد خان، رفيق أحمد ناصر، عبد الرزاق فراز، فهيم أحمد خالد، محمد يوسف شاهد، نويد أحمد سعيد، حفيظ الله هروانه، عبد الحميد عامر، محمد أحمد نعيم، محمد طاهر نديم، وعبد المؤمن طاهر. جزاهم الله أحسن الجزاء، آمين.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب القيم سراجاً منيراً للباحثين عن الحق وسبباً لإرواء غليلهم الروحاني، ويهدي به كثيراً من عباده إلى الصدق والحق، آمين. وما ذلك على القدير بعزيز.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله مولى النعم، والصلاه والسلام على سيد الرسل وسراج الأمم، وأصحابه الـهـادـينـ المـهـديـينـ وآلـهـ الطـاهـرـينـ المـطـهـرـينـ. أما بعد، \* فإن القرآن كجوهرة لامعة وقمر منير تلمع أشعة صدقه وبروق كونه من عند الله تعالى في آلاف الجهات وليس في جهة أو جهتين، وبقدر ما يسعى مناهضو هذا الدين المتين ليطفئوا هذا النور الرباني فإنه يضيء أكثر ويصبـيـ إـلـيـهـ كـلـ أـهـلـ بـصـيـرـةـ بـحـسـنـهـ وـجـمـالـهـ. ولما كان القسيـسـونـ والـأـرـيـوـنـ الـهـنـدـوـسـ فيـ هـذـاـ الرـمـنـ المـظـلـمـ لمـ يـأـلـواـ جـهـدـاـ بـسـبـبـ عـمـاـيـتـهـمـ فـيـ أـنـ يـشـنـنـاـ عـلـىـ هـذـاـ النـورـ كـلـ تـلـكـ الـهـجـمـاتـ الـتـيـ يـمـكـنـ أـنـ يـشـنـنـهـ أـكـبـرـ الـجـاهـلـينـ الـمـعـصـيـنـ، لـذـلـكـ فـإـنـ هـذـاـ النـورـ الـأـزـلـيـ قـدـ دـلـلـ مـنـ كـلـ جـانـبـ عـلـىـ كـوـنـهـ مـنـ عـنـدـ اللهـ تعالىـ. إـنـ مـنـ مـزـاـيـاـهـ الـعـظـيـمـةـ أـنـ بـنـفـسـهـ يـدـعـيـ بـمـاـ يـحـتـويـ عـلـيـهـ مـنـ هـدـاـيـاتـ وـكـمـالـاتـ، ثـمـ يـأـتـيـ بـالـأـدـلـةـ عـلـىـ دـعـوـاـهـ. وـهـيـ مـيـزـةـ عـظـيـمـةـ لـاـ تـوـجـدـ فـيـ أـيـ كـتـابـ آـخـرـ. وـمـنـ الـأـدـلـةـ وـالـبـرـاهـيـنـ الـعـظـيـمـةـ الـتـيـ قـدـمـهـاـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ عـلـىـ كـوـنـهـ مـنـ عـنـدـ اللهـ تـعـالـيـ وـعـلـىـ أـفـضـلـيـتـهـ دـلـيـلـ

---

\* من هنا تبدأ ترجمة عربية لمقدمة كتبها سيدنا المسيح الموعود ﷺ هنا باللغة الأردنية. (اللجنة)

عظيم أللّفنا مِنْ أَجْلِهِ هَذَا الْكِتَابُ بِالشَّرْحِ وَالتَّفْصِيلِ، وَهَذَا الدَّلِيلُ يَنْبُعُ مِنْ عَيْنِ أُمّ الْأَلْسُنَةِ الصَّافِيَةِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي يَلْمِعُ زُلْمَاهَا لِمَعَانِ النَّجُومِ، وَتَرْوِيُّ كُلَّ مُتَعْطِشٍ لِلْعِرْفِ بِعَمَاءِ الْيَقِينِ، وَيَنْقِيَّهُ مِنْ دَرْنِ الشُّكُوكِ وَالشَّبَهَاتِ. وَهَذَا الدَّلِيلُ لَمْ يَقُدِّمْهُ أَيْ كِتَابٍ سَابِقٍ عَلَى صِدْقَهُ، وَإِذَا كَانَ الْفِيدَا الْهَنْدُوْسِيُّ أَوْ غَيْرُهُ مِنَ الْكِتَابِ السَّابِقِ قَدْ قَدَّمَ هَذَا الدَّلِيلَ عَلَى صِدْقَهُ، فَمِنْ وَاجْبِ أَتْبَاعِهِ أَنْ يَقْدِّمُوا تِلْكَ الْعَبَارَةَ مِنَ الْفِيدَا أَوْلَأً عِنْدَ الْمُواجِهَةِ.

وَمُلْخَصُ هَذَا الدَّلِيلِ هُوَ أَنْ إِلْقَاءُ نَظَرَةٍ عَلَى شَتَّى الْلُّغَاتِ يُؤَكِّدُ وَجْهَدَ اشْتِرَاكِ بَيْنِ لُغَاتِ الْعَالَمِ كُلِّهَا. ثُمَّ إِنْ نَظَرَةً عَمِيقَةً أُخْرَى فِي الْلُّغَاتِ تَثْبِتُ تَمَامًا أَنَّ أُمّ جَمِيعِ هَذِهِ الْلُّغَاتِ الْمُشْتَرِكَةَ هِيَ الْعَرَبِيَّةُ، وَمِنْهَا خَرَجَتْ كُلُّ الْلُّغَاتِ الْأُخْرَى. ثُمَّ إِنَّ الْبَحْثَ الْكَامِلَ الْوَاسِعَ جَدًّا؛ أَعْنِي الْإِطْلَاعَ الْكَامِلَ عَلَى الْكَمَالَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَرَبِيَّةِ، يَجْعَلُ الْمَرءَ يَقْرَرُ أَنَّ هَذِهِ الْلُّغَةَ لَيْسَتْ أُمّ الْأَلْسُنَةِ فَحَسْبًا، بَلْ هِيَ لُغَةُ إِلَهِيَّةٍ عَلَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْنَا بِعُشْبَيْتِهِ الْخَاصَّةِ وَبِوَحِيهِ وَبِإِلَهَامِهِ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ اخْتِرَاعَ بَشَرٍ. وَإِذَا كَانَتِ الْعَرَبِيَّةُ هِيَ الْلُّغَةُ الْإِلَهِيَّةُ الْإِلَهَامِيَّةُ بَيْنَ جَمِيعِ الْلُّغَاتِ، فَلَا بدَّ مِنِ الاعْتِرَافِ أَيْضًا أَنَّهَا وَحْدَهَا كَانَتْ أَهْلًا لِنَزْولِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ الْأَكْمَلِ وَالْأَتْمَمِ؛ إِذَا مِنَ الْفَرِصَ الْمُرْكَبَةِ جَدًا أَنَّ كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي يَنْزَلُ لِهُدَايَةِ الْأَمْمِ كُلِّهَا لَا بدَّ أَنْ يَنْزَلَ بِلُغَةِ إِلَهَامِيَّةٍ هِيَ أُمُّ

الألسنة، لكي تكون لها علاقة طبيعية بكل لغة أخرى وأهلها، ولكي تنطوي - كونها لغة إلهامية - على جميع البركات التي توجد في الأشياء التي تخرج من يد الله المباركة. وحيث إنّ اللغات الأخرى لم يخترعها الناس عمداً، بل تفرّعت كلها بحكم رب القدير من هذه اللغة المباركة ثم تشوّهت، وهي ذريّتها في الحقيقة، فما كان عبّاً أن تنزل تلك اللغات أيضاً صحفاً ربانية إلى شعوب معينة. بيد أنه كان لزاماً أن ينزل الكتاب الأقوى والأعلى باللغة العربية حتماً، لأنّها أمّ الألسنة، ولغة إلهامية أصلية خرجت من لدن الله تعالى. ولما كان القرآن هو الذي أتى بهذا الدليل، وهو الذي ادعى بهذه الدعوى، وليس هناك كتاب مقدس سواه باللغة العربية يدعى بهذه الدعوى، فلا بد من الاعتراف أن القرآن الكريم من عند الله تعالى، وأنه مهيمن على الصحف كلها، وإلا صارت كل الصحف الأخرى باطلة. وتحقيقاً لهذا الهدف قد ألفت هذا الكتاب.. أعني لكي أثبت أولاً بعونه تعالى اشتراك اللغات كلها، ثم أورد عليكم الأدلة على كون العربية أمّ الألسنة ولغة إلهامية أصلية، ثم بناءً على خصوصية العربية بكونها لغة كاملة خالصة وإلهامية، أدلّ على النتيجة القطعية اليقينية بأن القرآن الكريم هو أعلى الصحف وأرفعها،

وأتمها وأكملها، وختامها وأم الكتب كلها، كما أن العربية أم الألسنة.

ولا بد لنا في هذا البحث والتحقيق أن نتخطى المراحل الثلاث التالية:

المرحلة الأولى: إثبات اشتراك اللغات كلها.

المرحلة الثانية: إثبات أن العربية هي أمُّ الألسنة.

المرحلة الثالثة: إثبات أن العربية لغة إلهامية لكمالاتها الخاصة ومتزاياها الخارقة.

يدرك معارضونا جيداً أنه لو حُكِمَ هذا البحث والتحقيق في صالح العربية، فلا بد من الإقرار أن القرآن من عند الله تعالى، وليس ذلك فحسب، بل لا بد من الإقرار أيضاً أن الكتاب الذي نزل بلغة إلهامية أصلية إنما هو القرآن وحده، وأن اللغات الأخرى كلها متطفلة عليها، وبعد انكشاف هذه الحقيقة لا بد أن يقام مأتم عند كل الأمم الأخرى، لا سيما الآرين الهندوس الذين يزعمون باطلأ أن لغتهم السنسكريتية هي لغة بَرْمِيشَر.. أي لغة الله، وأنها هي اللغة الكاملة الإلهامية، وأنها هي أم الألسنة، مع أنهم لم يقدموا حتى اليوم أي قول من كتابهم "الفيدا" يؤكّد أن الفيدا قد ادعى بنفسه مثل هذه الدعوى.

ول يكن معلوماً أنه قد سبق أن تكلّمَ بعض الآريين (الهندوس) الجهلة البذئي اللسان بهراء كثير ضد الإسلام، ورغم جهلهم الشديد وقلة بضاعتهم العلمية قد أقحموا أنفسهم في المباحثات الدينية، وقد أساء بعض الأشرار السفّلة العديمي الحياة منهم إلى القرآن الكريم - كلام الله المجيد المقدس - تعصباً لكتابهم "الفيدا"، وهكذا أظهروا ما في بوطنهم من خبث وسوء، وخدعوا البسطاء بأنهم كبار علماء "الفيدا" وحكماً، وأنهم رأوا في "الفيدا" فضائل كثيرة، فلذلك مالوا إليه. ولكن هذا البحث والتحقيق الذي نقدمه الآن علميّ، فلا يمكن أن يتكلم فيه جهالُ أيّ دين، لأن الكلام في هذا المقام يتطلب علمًا ومعرفة، ولا ينفع فيه الكلام الفارغ الذي يُلقى هَذِرًا. هذا البحث كامل، أصله ثابت وفرعه في السماء، بمعنى أن المرء لا يزال يصعد في هذه الشجرة حتى يجني ثمرة الحقيقة الروحانية. وبديهي أن الفروع تتغذى وتتقوى من الأصل، إلا أن الشمار التي تؤكّل لا يحملها الأصل، بل تحملها الفروع نفسها. كذلك لا تظهر النتيجة الحقيقة لكل الواقع إلا في فروع هذا العلم، فالذين يقومون ببحث موضوعيّ في هذه الواقع ويحفظون الحقائق الثابتة في أذهانهم حفظاً جيّداً يرون بكل وضوح تلك الشمار التي تمتلئ بها تلك الفروع والأغصان.

ول يكن معلوماً أننا لكي نصل إلى حقيقة أن القرآن الكريم من عند الله تعالى وأنه أم الكتب فإن هناك ثلاثة أمور فقط تتطلب منا بحثاً وإثباتاً، وقد ذكرنا هذه الأمور الثلاثة آنفاً، ولا شك أن غشاوة الجهل ستزول عن عيون من يستوعبها جيداً، وسيعترف حتماً بالنتيجة التي توصل إليها هذه الوقائع.

إن أول هذه الأمور الثلاثة التي هي بحاجة إلى البحث والإثبات هو اشتراك الألسنة كلها، وقد تم إثبات هذا الأمر في كتابنا هذا بوضوح وجلاء لا يتصور أكثر منه في أي بحث وتحقيق؛ فبرغم أن إثبات اشتراك لفظ واحد بين جميع اللغات يكفي لإثبات هذا الاشتراك فيها، إلا أنها قد أثبتنا في هذا الكتاب اشتراكآلاف الكلمات بين اللغات، وبرهنا بها بكل جلاء اشتراك العربية مع كل لغة أخرى.

والقضية الثانية التي بحاجة إلى تحقيق وإثبات هي أن العربية هي وحدها أم الألسنة بين جميع اللغات المشتركة، وقد فصلنا الأدلة على ذلك في هذا الكتاب تفصيلاً، وأنبأنا أن من الخواص الكمالية للعربية أن فيها نظاماً فطرياً طبيعياً، وأنها تُرى جمال الصنعة الإلهية كما هو موجود في أفعاله الأخرى في الكون. كما أثبتنا أيضاً أن جميع اللغات الأخرى صورة مشوهة للعربية، فبقدر ما حافظت هذه اللغة المباركة على هيئتها في اللغات الأخرى، فهي تلمع فيها معانٌ ماسٌ

والياقوت، وتصبى القلوب بحسنها الأخّاذ، ولكن بقدر ما تشوّهت هذه الكلمات العربية بعد انتقالها إلى اللغات الأخرى فقدتْ روعتها وجمالها.

و واضح أن كل شيء خرج من يد الله تعالى ينطوي على خواص خارقة حتماً ما دام محفوظاً بصورته الأصلية، ولا يقدر الإنسان على الإتيان بمثله، وبقدر ما يسقط من حالته الأصلية تتغير صورته ويتضاءل حسنها. خذوا الشجرة مثلاً، فكم هي تبدو جميلة ورائعة في حالتها الأصلية، وتحدى بلسان حالها.. بحضورها الجميلة وظلها المنعش وأزهارها وثمارها.. أن الإنسان ليس ب قادر على الإتيان بمثلها، ولكنها عندما تسقط وتحفّ فإن خواصها تتغير وأحواها تتبدل كلياً، فلا تبقى فيها نفس الألوان والروعة والنصرة ولا الحضرة الجميلة، ولا يبقى هناك أمل لاحضارها ونمائها وإثمارها في المستقبل. أو خذوا مثلاً الإنسان، فإنه عندما يكون شاباً حياً يشعّ وجهه جمالاً وبهاءً، وتعمل قواه كلها على ما يرام، ويلبس لباساً فاخراً جميلاً، ولكن إذا مات، فلا تبقى في عيونه ملاحة، ولا في وجهه نضارة، ولا يسمع ولا يرى، ولا يفهم ولا يعرف، ولا يتكلم ولا يمشي.. بل يفقد كل هذه الخواص الرائعة.

هذا هو الفرق بين اللغة العربية وغيرها من اللغات. إن العربية تعمل كما يعمل الإنسان اللطيف الطبع الذكي العقل، الذي يعبر عن مراده بطرق شتى، فهو يعبر أحياناً بإشارة حاجبه أو أنفه أو يده عمّا يريد قوله بلسانه.. أعني أنه يقدر على تبليغ مراده للمخاطب بأبسط إشارة. هذا من خصائص العربية أيضاً، فهي تؤدي بلام التعريف معنى تؤديه اللغات الأخرى بوضع كلمات، وأحياناً تؤدي بالتنوين معنى لا تؤديه اللغات الأخرى إلا بحمل طويلة، كما تؤدي الحركات في العربية من ضمٍّ وكسر وفتح ما لا تؤديه بوضع حمل في اللغات الأخرى. ثم إن بعض الكلمات العربية القصيرة جداً تؤدي معنى طويلاً بطريق مذهل؛ حتى يقول المرء من أين هذا المعنى. فمثلاً: عرضتُ تعني: زرتُ مكة والمدينة وما حولها من القرى. وطهافتُ يعني: أكلتُ حبز الذرة وعاهدت على أكله دائماً، وجثَّم يعني: انقضى الليل إلى منتصفه، وحيَّل يعني: تعالَ لأداء الصلاة فقد حان وقتها.

وهناك كلمات أخرى كثيرة وهي حرف واحد، ولكن معانيها تشتمل على كلمتين أو ثلاث، مثل:

فِ: أي أو فِ بعهدك.

قِ: أي قُمْ بالحماية.

لِ: أي اقترب.

عِ: أي احفظ.

إِ: أي عِدْ وعداً.

خِ: أي اقصد في مشيتك، فلا تسرع فيها ولا تبطئ

هِ: أي ضعُفْ وقُرِّقْ.

دِ: أي أَدَّ الديَةَ.. (أي غرامة القتل).

رِ: أي اشتعلْ واتَّقدْ واحرُجْ من القدَّاحة، وأيضاً يعني اتَّسخْ.

شِ: اعْمَلِ الوشِيَّ على ثيابك.

نِ: تَكَاسَلْ.

ومن عجائب اللغة العربية أنها تجمع في نفسها كل الخواص المترفرفة في اللغات الأخرى. فمن خواص بعض اللغات كالصينية مثلاً أن كل كلماتها أجزاء مستقلة، وكل جزء له معنى مستقل في مكانه، وهذه الخاصية توجد في العربية أيضاً. ويقال أن كلمات لغة القارة الأمريكية الأصلية متكونة من أجزاء كثيرة لا معنى لها في حد ذاتها، وهذه الخاصية موجودة أيضاً في بعض الألفاظ العربية. ثم هناك تصاريف لبيان تغيير المعانٰي في اللغة الأمريكية الأصلية والسينسكريتية، واللغة العربية أيضاً فيها تصاريف. وليس في اللغة الصينية تصاريف، بل فيها كلمات أخرى للتعبير عن الأفكار

الجديدة، وهذا هو حال بعض كلمات اللغة العربية أيضاً. فما دام التحري والتدبر العميق والبحث يدل على أن العربية جامعة لما في اللغات كلها من خواص متفرقة، فلزم الإقرار بأن اللغات الأخرى كلها فروع للعربية.

ويعرض البعض قائلاً: إذا قبلنا أن أصل اللغات وجذرها كلها لغة واحدة، فكيف وقعت هذه الفروق الكبيرة بين كل اللغات المتفرعة من لغة واحدة خلال ثلاثة أو أربعة آلاف سنة فقط، فهذا غير معقول.

والجواب أن هذا الاعتراض ليس إلا من قبيل بناء الفاسد على الفاسد؛ إذ ليس من الأمور القطعية اليقينية أن عمر الدنيا أربعة أو خمسة آلاف سنة فقط، ولم يكن قبلها أي أثر للسماء والأرض. بل الحق أن التدبر العميق يكشف أن هذه الدنيا عاشرة منذ دهور سقيقة.

ثم إن اختلاف الألسنة ليس راجعاً إلى تطاول الزمان أو بُعد المكان فقط، بل هناك سبب قوي آخر، وهو القرب والبعد من خط الاستواء وتأثير النجوم بأوضاعها الخاصة، وغيرها من أسباب غير معروفة، فإن أحوال كل بقعة من الأرض تصوغ طبيعة أهلها بحيث يكون لهم حلق ولهجة وخارج صوتية خاصة، وهذا السبب يؤدي

شيئاً فشيئاً إلى وضع كلاميًّا خاص عندهم، ولأجل ذلك نجد أنَّ أهل بعض البلاد لا يقدرون على نطق الزَّاي، وبعضهم لا يقدرون على نطق الراء. فكما أن اختلاف البلاد يحتم اختلاف الناس في ألوانهم وأعمارهم وأخلاقهم وأمراضهم، كذلك يحتم اختلافهم في اللغات، لأنَّ هذا الاختلاف أيضاً خاضع لنفس المؤثرات.

فالقول لماذا انحصر هذا الاختلاف إلى هذا الحد ولم يتتجاوزه خلالآلاف السنوات، ليس إلا خدعةً؛ إذ قد وقع الاختلاف بقدر ما حتمته المؤثرات، وكان من الحال أن يكون أكثر من ذلك؟!

هذا الاعتراض يماثل القول: لماذا أدى اختلاف الأماكن إلى اختلاف ألوان أهلها وأعمارهم وأمراضهم وأخلاقهم فقط، ولماذا لم يحدث أن يكون لأهل منطقة عين وأهل منطقة أخرى عشر عيون؟ فليس جواب مثل هذا الوهم إلا القول إنَّ هذا الاختلاف لم يقع بطريق فوضوي، بل كان خاضعاً لقاعدة طبيعية، فوقع بقدر ما اقتضته هذه القاعدة الطبيعية.

باختصار، إنَّ التغيير الحاصل في السرعة الطبيعية لخلقية الناس وخلقهم وأفكارهم نتيجة المؤثرات السماوية والأرضية، لا بد أن يؤثر في سلسلة كلماتهم أيضاً، وبالتالي تضطرهم للاختلاف في الكلام طبعاً، فإذا وصلت إليهم كلمة من لغة أخرى غيرها عمداً

إلى حدٌ كبير. فهذا دليل رائع على أن الناس بفطرتهم بحاجة إلى التبديل والتغيير نتيجة خلقتهم المتأثرة بالمؤثرات السماوية والأرضية. هذا، ولا مناص للمسيحيين واليهود من الاعتراف أن العربية أمُّ الألسنة، إذ الثابت من نصّ التوراة الصريح أن اللغة كانت واحدة في البداية، ثم أوقع الله تعالى بينهم الاختلاف ببابل. (انظر التكوين الإصلاح ١١). ومن المسلم به عند الجميع أن مدينة بابل كانت تقع على الأرض التي تقع عليها مدينة كربلاء اليوم، ففحوى هذا البيان التوراتي أن العربية هي أم اللغات كلها. والثابت ببحوث الباحثين الإنجليز والمسلمين أن مدينة بابل -التي كان طولها مائتي ميل، والتي كان عدد سكانها يزيد على عدد سكان مدينة لندن بخمسة أضعاف، والتي كانت فيها حدائق رائعة غريبة جداً، والتي كان نهر الفرات يجري خلاها- تقع في أرض العرب، وبعد خرابها عمّرت من أحجارها ولبنها مدن البصرة والكوفة والحلة وبغداد والمدائن. وهذه المدن كلها قرية من حدود بابل. فثبتت من هذا التحقيق أن بابل كانت في أرض العرب، وفي خريطة الجزيرة العربية المنشورة من بيروت مؤخرًا قد رسموا بابل في العراق العربي.

أما النصّ العبراني للتوراة من التكوين- الإصلاح ١١ - الفقرة الأولى هو كالتالي: ويهي خُلْ هارص شفه آحت ودبريم آحديم.. أي كانت الأرض كلها شفة واحدة، وكلاماً واحداً.

ول يكنْ واضحًا أن من الحال أن يراد هنا مِن "الأرض" أرض بابل فقط، والتي كانت تسمى: سِنْعَار؛ لأن هذه الفقرة جاءت قبل تلك القصة وهي تتعلق بالقصص التي مر ذكرها من قبل في الإصلاح العاشر، فالمراد من الفقرة المذكورة أن لغة كل الشعوب التي كانت في الأرض كانت لغة واحدة قبل وصولِ أيٌّ منها إلى بابل، ثم بعد وصولها إلى بابل جعل الله لغاتهم متفرقة. وقد حصل اختلاف اللغات بتشريد أهل بابل إلى مختلف البلاد، كما يدل على ذلك الفقرة الثامنة من هذا الإصلاح نفسه، وهي: "ويفص يهوه آتم مشيم عَلَى بَنِي كُلَّ هَارَصٍ.." أي: بَدَدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ. فالواضح أنهم تفرقوا من بابل إلى بلاد مختلفة. فكلمة (كل هارص) الواردة في الفقرة الأولى، لبيان أن لغة كل الأرض كانت واحدة، قد وردت أيضًا في الفقرة الثامنة لبيان أن أهل بابل تفرقوا في الأرض كلها نتيجة غضب الله تعالى. فثبتت بتظاهر هاتين الفقرتين وأيضًا بدراسة الإصلاح السابق بمحلاه، أن هذه الفقرات إنما تعني أن لغة أهل الدنيا كلها كانت واحدة قبل

حدث بابل، وهذه هي العقيدة المتفق عليها عند اليهود والنصارى، ومن شكٍّ في ذلك فقد أخطأ خطأً كبيراً. هذه المسألة ثابتة بالنصوص التوراتية الصريحة، وهي المسألة لها عند أهل الكتاب منذ القدم. بيد أنه رغم الاعتراف بأن لغة العالم كله كانت واحدة بحسب ما ورد في الفقرة الأولى من الإصلاح الحادى عشر من التكوين، فمن الخطأ الظنُّ أنَّ كلَّ بني آدم قد ارتحلوا من بلادهم ليسكنوا في بابل، خاصة أننا لا نجد سبباً معلوماً وراء مغادرتهم بلادهم. بل يبدو أنَّ الله تعالى أراد بعد طوفان نوح أن يتکاثر الناس بسرعة بالتوالد والتناسل، فتركهم القادر مطلق القدرة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في أمن ودعة وصحة لفترة من الزمن، فتكاثروا وازدادوا وازدهروا بشكل خارق للعادة، فوجد بعض الشعوب بلادهم قد ضاقت بهم، فتحرّكوا إلى أرض سنمار التي هي أرض بابل، وأقاموا هذه المدينة هنالك، فازدادوا بكثرة لم يسبق لها نظير في الماضي، ثم تفرقوا إلى مدن أخرى وتسبّبوا في اختلاف اللغات في العالم كله.

أما لو اعترض البعض: أن التشابه بين العربية التي تعتبرونها أمَّ الألسنة وبين غيرها من اللغات كلها ليست بنسبة متساوية، بل تتفاوت هذه النسبة من لغة إلى أخرى، فمثلاً يتضح بأدنى التدبر أن العِبرية هي عربية بشيء من التغيير، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة

إلى السنسكريتية واللغات الأوروبية.. فالجواب: رغم أن العِبرية وفروعها الأخرى قد تفرعت من العربية بشيء من التغير، أما السنسكريتية وغيرها من لغات العالم فقد تكونت نتيجة تغيرات بعيدة المدى، غير أن التدبر العميق ودراسة القواعد يكشف بوضوح أن كلمات هذه اللغات ومفرداتها هي كلمات عربية صيغت بقوالب أخرى متنوعة.

أما فضائل العربية التي تخصّها هي فقط، والتي سوف نشرحها في محلها إن شاء الله، والتي تشكّل دليلاً قطعياً على أنها لغة كاملة إلهامية وأم الألسنة هي خمس فضائل، فيما يلي تفصيلها:

الفضيلة الأولى: إن نظام المفردات في العربية كامل.. أي أن مفرداتها تساعد الحاجات الإنسانية مساعدة كاملة، أما اللغات الأخرى ففتقر إلى هذا النظام.

الفضيلة الثانية: أن أسماء الباري تعالى في العربية وأسماء أركان العالم، والنباتات والحيوانات والجمادات وأعضاء الإنسان، تنطوي تسميتها على علوم وحكم كبيرة، وليس بوسع اللغات الأخرى منافسة العربية في هذا المجال.

الفضيلة الثالثة: هناك نظام كامل لاطراد المواد في العربية، وإن دائرة هذا النظام تدخل كل الأفعال والأسماء المشتقة من مادة واحدة

في سلسلة من الحِكْم كاشفةً العلاقات فيما بينها، وهذه الميزة تفتقر إليها اللغات الأخرى.

الفضيلة الرابعة: إن التراكيب العربية قليلة الكلمات غزيرة المعاني.. أعني أن العربية تؤدي بـ الـ التعريف أو التنوين أو التقديم والتأخير معاني وأغراضًا تحتاج اللغات الأخرى لبيانها إلى جمل عديدة.

الفضيلة الخامسة: تحتوي العربية على مفردات وتركيب هي وسائل كاملة لرسم كل ما يختلُج في ضمير الإنسان من أدق المعاني والخواطر والأفكار.

وحيث إنه قد أُلقيت علينا مسؤولية كبيرة لإثبات وجود نظام متكمال في المفردات العربية تعجز اللغات الأخرى عن الإتيان بمثله، وإثبات محسنها الأربعة الأخرى أيضاً، فكان لزاماً علينا أن نكتب هذه المباحث باللغة العربية نفسها، لأن من واجبنا أن نُرِيَ المُعارضَ محسن العربية وخصوصها هذه كلها.. ثم نطالبه بالإتيان بمثلها من لغته إذا كان يرى أن العربية ليست اللغة الإلهمية ولا أم الألسنة. ولما كانت هذه مسؤولية كبيرة، فارتَأيت لإفحام المعارض وتبكيته تماماً، أن أتَخَذَ تدبيراً يقضي على جميع الأعذار الواهية التي يمكن أن يقدمها عند عجزه في المواجهة. فمثلاً يمكن للمعارض الآري الهندوسي أن

يقول - فراراً من المواجهة - إن ادعاءك بوجود هذه الفضائل الخمس في العربية خاصةً ادعاء بلا دليل، إذ لا تصح هذه الدعوى إلا إذا كانت عندك معرفة تامة بالسينسكريتية، وما دمت لا تملك المعرفة التامة بها، فثبت أن دعواك قاصرة، وهناك احتمال أن يظهر زيفها عند التحقيق.

ورغم أننا قد ردنا على هذه الفكرة التافهة، وبيننا أن البحوث التي نقدمها هنا قد قام بها جماعة من العلماء الذين بينهم علماء اللغة السنسكريتية، ومع ذلك فنقدم هنا إثماً للحججة عليهم بشكل كامل طريراً للفصل لا يمكن أن يتهرب منه أحد، وهو أننا إذا ثبت كذبنا في دعوانا بوجود هذه الفضائل الخمس الفريدة والمذكورة آنفاً في اللغة العربية، وإذا قدر أحد من علماء السنسكريتية على أن يثبت أن لغته أيضاً تتحلى بهذه المزايا مثل العربية وشريكة معها على قدم المساواة، أو غالبة عليها في هذا المجال، فإننا نعده وعداً قطعياً بأن ندفع له - على الفور - مكافأةً قدرها خمسة آلاف روبيه. علماً أن وعدنا بالجائزة ليس من قبيل الإعلانات التافهة الزائفة التي يقوم بها العامة، فلا يظنن أحد ويقول: إنها مجرد ادعاء وثرثرة لسان، فمن يعطي ومن يأخذ؟! كلا، بل إننا نعلن أن من حق المعارض أن يطمئن من قبلنا كيفما شاء، فإذا أراد، وضعنا هذا المبلغ في البنك

الحكومي أو عند أحد التجار الهندوس، وإذا لم ينجمع هذا المبلغ حسب طلبه أو لم ينجمعه في مدة شهر بعد نشره طلبه وبعد وصول رسالته المسجلة إلينا، فنكون من الكاذبين المثيرين حتماً، ولن يكون لكل علمنا أي اعتبار. غير أنه لا بد من يطالعنا بجمع هذا المبلغ أن يتعهد في طلبه الخطي بإنجاز هذا العمل خلال مدة محددة، ويقر أنه إذا فشل في ذلك ولم يثبت صحة موقفه عند المواجهة فسوف يدفع بلا عذر أو احتيالٍ غراماً يقررها أنساس عدُول أو محكمة، مقابل تمجيد هذه الأموال التي كان يمكن أن تستثمر خلال هذه المدة.

ول يكن واضحاً أننا قد أعدنا هذا الكتاب ببذل الجهود قرابة شهر ونصف فقط، إذ بدأنا العمل عليه بعد انقضاء أيام من شهر إبريل/نيسان ١٨٩٥، وفرغنا من إنجازه قبل انتهاء شهر مايو/أيار في نفس العام، ولم نعمل خلال هذه المدة كل اليوم على هذا الكتاب، بل بذلنا جهودنا وفكّرنا لتأليفه خلال ثلث اليوم أو ربعه خلال هذه الفترة، ولو بذلنا الجهد طوال اليوم فربما أنجزنا هذا العمل خلال أسبوع أو عشرة أيام، أما الخصم فليس عليه بذل الجهود التي بذلناها، إذ كان لا بد لنا أن نلقي على اللغات كلها نظرة عميقة لإثبات اشتراكاتها مع العربية، ثم كان لزاماً علينا بعد ذلك أن ثبت

أن العربية لغة الوحي وأم الألسنة، وذلك بإثبات وجود هذه الفضائل الخصوصية والكلمات الخارقة فيها، ولكن ليس على المعارضين بذل كل هذه الجهود، بل نحن راضون بأن يأتوا فقط بفضائل لغتهم إزاء هذه الفضائل للغة العربية، وأن يثبتوا أن لغتهم تتحلى بتلك الفضائل والمحاسن التي أثبناها بحق العربية في كتابنا هذا، فمثلاً قد أثبنا من خلال إيراد المفردات العربية في ثنايا الكلام والعبارات أن نظام مفرداتها كامل وقدر على بيان كل نوع من الأفكار والمعاني، فينبغي أن يقدموها لنا نموذجاً ممائلاً للمفردات من لغتهم. ولا شك أن هذا العمل قليل ولا يتطلب إلا بضعة أيام، وبالتالي ليس عليهم بذل جهود كبيرة، بل الحق أن عالم السنسكريتية الفيدية مثلاً، يستطيع أن يأتي بهذه الأمثلة خلال بضعة أيام شريطة أن تتحلى تلك اللغة بهذه الميزة. كل ما نطالب به الآن أهل اللغات الأخرى هو أن يثبتوا تحلي لغاتهم بهذه المحاسن التي أثبناها بحق اللغة العربية. فمن الواضح أن اللغة الكاملة لا بد لها من نظام كامل للمفردات.. أي أنه لا مناص للغة الكاملة التي تُدعى لغة الإلهام وأم الألسنة أن تكون عندها ذخيرة كاملة من المفردات لنقل شتى الأفكار والخواطر الإنسانية إلى قالب الكلمات. فمثلاً إذا أراد المرء أن يتكلم بكلام مبسوط مستفيض حول توحيد الباري، أو

الشرك، أو حقوق الله، أو حقوق العباد، أو العقائد الدينية، أو الأدلة عليها، أو الحب والاختلاط، أو البغض والكرابية، أو حمد الله والثناء عليه، وأسمائه المطهرة، أو الرد على الأديان الباطلة، أو القصص والواقع، أو الأحكام والحدود، أو علم المعاد، أو التجارة، أو الزراعة، أو الوظيفة، أو النجوم والفالك، أو الطبيعتا، أو الطب، أو المنطق وغيرها، فتمدّه مفردات لغته بلفظ إزاء كل ما يخطر بباله من خاطرة وفكرة، ليكون ذلك دليلا على أن الذات الكاملة التي خلقت الإنسان وأفكاره هي التي قد خلقتْ منذ القديم مفردات للتعبير عن تلك الأفكار والخواطر. وإنْ عَدْنَا الفطري يدفعنا إلى الإقرار بأن لغة تتحلى بهذه الميزة - حيث تشتمل على مفردات جميلة متناسبة إزاء الأفكار الإنسانية، وتبهر كل فرق دقيق عميق بين الأفعال من خلال الكلمات والأقوال، وتسدّ مفرادتها كل ما تحتاج إليه أفكار الإنسان - هي بلا شك لغة إلهامية، لأن فِعلَ الله تعالى هو الذي خلق الإنسان مزوّداً بآلاف الأفكار، فكان لزاماً أن يُمدّه بذخيرة من المفردات القولية إزاء هذه الأفكار ليتوافق قول الله و فعله على مستوى واحد.

أما اللجوء إلى التعبير المركبة عند الحاجة فهذه ليست خصوصية لسان معين، بل تعمّ هذه الآفة والعيب آلاف الألسنة، حيث

تستخدم التعبيرات المركبة بدل المفردات، مما يدل على أن الناس قد اخترعوا هذه التراكيب من عند أنفسهم عند الحاجة، فاللغة التي هي محفوظة من هذه الآفات، وتميز بأداء المعاني بالمفردات وترى أقوال الله تعالى مساوية لفعاليه.. أعني موافقة للأفكار التي تحيش في نفس الإنسان.. فلا شك أن هذه الخصوصية تميزها عن باقي اللغات بشكل خارق، وتجعلها جديرة بأن تسمى لغة إلهامية أصلية وفطرة الله. وإذا تميزت لغة بهذه المكانة العالية.. أعني أن تكون من لدن الله تعالى، وتكون مخصوصة بهذه الكمالات الحارقة، وتكون أم الألسنة، فمن مقتضى الإيمان أن نقول إنها هي اللغة الوحيدة التي استحقت بالجدارة لأن ينزل بها وحي الله الأعلى والأكمل، وأما ما سواه من الوحي فإنما هو بمثابة فروع لهذا الوحي الأعلى، كما أن اللغات الأخرى فروع من هذه اللغة المميزة. ولذلك فإننا بعد الفراغ من كتابة هذا البحث، سوف نبيّن أن ذلك الوحي الحرفي الخالص والأتم والأكمل الذي كان مقدراً نزوله إلى الدنيا إنما هو القرآن الكريم، كما سنفصل النتيجة المترتبة على هذه المقدمات.. وهي أن الاعتراف بكون العربية أم الألسنة ولغة إلهامية لا يستلزم الإقرار بأن القرآن كلام الله تعالى فحسب، بل أيضاً بأن القرآن وحده يمكن أن يسمى الوحي الحرفي الخالص والأكمل والأتم وختام الكتب.

---

والآن نبدأ بكتابة الجزء العربي من هذا الكتاب ليبيان نظام المفردات في العربية وغيرها من محاسنها. ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهو العلي العظيم.

## نبیه

و قبل البدء في كتابة الجزء العربي من هذا الكتاب أرى لزاماً أن أوضح أنني كتبت أنوي الاكتفاء بجمع المفردات العربية وعرضها في الكتاب، ولكنني فكرت فيما بعد أن البعض ربما لن يفهموا قصدنا جيداً، إذ توجد عند أهل كل لغة مفرداتٌ قلّت أو كثرت؛ فمثلاً يوجد ذخيرة ضئيلة من المفردات في اللغة السننسكريتية حيث يقول علماؤها إن جذورها لا تتجاوز أربع مائة جذر، ومع ذلك لا نستطيع القول إنه لا يوجد فيها مفردات. أما العربية فقد أثبت الباحثون أن مفراداتها أكثر من ٢,٧ مليون جذر، ومع ذلك فإن الخصم المتعصب لن يرتدع عن البخل والشرّ والطعن ما لم نلزمـه ونفحـمه بحسب قاعدة معينة. فارتـأينا أنه من المـعقول جداً أن نطالبـه بنـظام مـفردات في لـغته بشـأن كل مـوضوع علىـ حـدة. وـنعنيـ من نـظامـ المـفرداتـ بيانـ كلـ مـوضوعـ إلىـ نهاـيـةـ الطـبـيعـيـةـ بـعـبـارـةـ تصـاغـ بـالـمـفـردـاتـ وـحدـهاـ، ثمـ نـطالـبـ الخـصمـ بـالـإـيـانـ بـمـثـلـهـ. وـهـذـاـ الطـرـيقـ سـيـحـسـمـ المـوقـفـ بـكـلـ جـلاءـ وـيـعـرـفـ بـهـ مـدـىـ فـصـاحـةـ وـبـلـاغـةـ كـلـ لـسانـ. وـلـماـ كانـ إـثـبـاتـ نـظـامـ المـفـردـاتـ فيـ لـغـةـ يـحـتـمـ عـلـىـ كـلـ فـرـيقـ أـنـ لـاـ يـكـتـفـيـ بـتـقـدـيمـ مـفـرادـاتـهاـ، بـلـ يـقـدـمـهاـ عـلـىـ شـكـلـ مـوـضـوعـ إـزـاءـ مـوـاضـيـعـاـ الـتـيـ

نكتبها، فلن يستطيع كل جاهل بلid أن يقحم نفسه في هذا البحث الذي يتطلب العلم والمعرفة. لقد سبق أن الآرين الهنودس مثلاً قد قدّموا لمواجهة الإسلام شخصاً ذليلاً جاهلاً شديد الغباء والحمق، واسمه ليكهرام، فكان لا يعرف غير السبّ والشتم، وصار تلميذاً للمسحيين وراح يعيد نفس الاعتراضات السخيفة التي أثارها أولئك الجهال ضد الإسلام، ولكن هذا البحث علميٌّ، فلن يحصل هكذا الآن ولن يقدر أي من أصحاب السير الفاجرة والطبع النجس والأخلاق الرذيلة والجهل الشديد والغباء البالغ أن يتكلم في هذا المجال، لأن الناس سيعرفون حقيقة هؤلاء القوم.

ولا أجد هنا بُدّا من شكر أحبائي الذين ساعدوني في بحث إثبات اشتراك اللغات. وها إني أخبر بكل سرور وحبور أن أحبابنا المخلصين هؤلاء قد عملوا بجهد ومثابرة في بحث اشتراك الألسنة، وسوف يبقى عملهم هذا تذكاراً خالداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. لقد ضحى لنا رجال الله هؤلاء بأوقاتهم الثمينة بسخاء، وأنجزوا هذا العمل العظيم بمنتهى الجدّ والكدّ ليل نهار، وإن لأعلم أنهم سينالون من الله ثواباً عظيماً، لأنهم اشتركوا في حرب سوف تُدقُّ طبول انتصار الإسلام فيها عن قريب، فكل واحد منهم يستحقّ أن ينال وساماً ربانياً. إني لا أستطيع أن أصف كيف أنهم في كل

جلسة كانوا يقطعون مئات الأميال وهم يبحثون في ثنايا الكتب والمصادر لإثبات اشتراك اللغات، ثم يرجعون فائزين ويقدمون لي هدية لفظ مشترك، إلى أن اجتمعتْ لدى لغات العالم كلها. لـن أنسى أبداً ما أسداه لي أحبابي المخلصون هؤلاء من مساعدة قيمة في إنجاز هذا العمل حتى لا أجده كلمات لوصفها. وإنني لأدعوا الله تعالى أن يتقبل مساعدتهم، ويتقبلهم في سبيله، ويجنّبهم الحياة النجسة على الدوام، ويرزقهم أنسه وحبه، ويكون معهم. آمين ثم آمين. وفيما يلي أسماؤهم:

- ١- أخي الطبيب المولوي نور الدين البهيروي
- ٢- أخي المولوي عبد الكريم السيالكوتi
- ٣- أخي منشي غلام قادر السيالكوتi
- ٤- أخي خواجة كمال الدين اللاهوري
- ٥- أخي ميرزا خدا بخش (معلم نواب محمد علي خان)
- ٦- أخي مفتى محمد صادق البهيروي
- ٧- (نواب) محمد علي خان المالير كوتلھوی
- ٨- أخي ميان محمد خان الكبور تھلوی
- ٩- أخي منشي غلام محمد السيالكوتi

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَكْثَرُهُمْ جَهَدًا فِي هَذَا الْعَمَلِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ لَا يُضِيغُ جَهُودَ أَيِّ مُخْلِصٍ، وَلَكِنْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِعِلْمِي وَمُشَاهَدَتِي فَأَرَى أَنَّ أَخِي الطَّبِيبَ الْمَوْلُوِيَ نُورَ الدِّينِ وَأَخِي الْمَوْلُوِيَ عَبْدَ الْكَرِيمِ كَانَا أَكْثَرَهُمْ جَهَدًا، حِيثُ لَا يَزَالُانِ مُقِيمَيْنِ عِنْدِي لِإِنْجَازِ هَذَا الْعَمَلِ، مِنْ قَطْعَيْنِ عَنْ كُلِّ شَوْؤُنَّهُمْ مِنْذُ شَهُورٍ عَدِيدَةٍ. وَالْمَوْلُوِيَ نُورُ الدِّينِ لَمْ يَقُدِّمْ هَذِهِ الْمَسَاعِدَةَ فَقْطًا، بَلْ اشْتَرَى وَجَلَّبَ مِنْ أَجْلِ هَذَا الْعَمَلِ كِتَابًا إِنْجْلِيزِيَّةً رَائِعَةً عَلَى حِسَابِهِ الْخَاصِّ، وَجَمَعَ ذَخِيرَةً مِنَ الْكِتَابَ الثَّمِينَةِ لَهُذَا الْغَرْضِ نَفْسِهِ. جَزَاهُمُ اللَّهُ خَيْرًا، وَاللَّهُ لَا يُضِيغُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. آمِينَ.

وَفِيمَا يَلِي الْخُطْبَةِ الْأُولَى مَعَ التَّمَهِيدِ الَّتِي نَطَّالَتِ الْأَرِيَا (الْهَنْدُوسُ)-الَّذِينَ يَدْعُونَ بِقِدْمِ الْلُّغَةِ السِّنِسِكَرْتِيَّةِ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْأَمَمِ الْأُخْرَى- أَنْ يَأْتُوا بِمَثَلِهَا مِنْ لُغَاهُمْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِنَظَامِ الْمَفَرَدَاتِ الْمُوْجَودِ فِي الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب الرحمن، ذي المجد والفضل والإحسان، خلق\*  
الإنسان، علّمه البيان، ثم جعل من لسان واحدة ألسنة في البلدان،

● من هنا يبدأ ما كتبه سيدنا المسيح الموعود صلوات الله عليه باللغة العربية. (الجنة)

\* فيما يلي تعرّيف الحاشية التي كتبها حضرته صلوات الله عليه هنا بالأردية. (الجنة)

لما كان الهدف الأساس من إيراد هذه العبارات العربية أن ثبت أن من خصائص اللغة العربية أنها -فضلاً عن كونها خادمة للإلهيات ولجميع فروع تعاليم الدين خدمة كاملة- تستعين بمفرداتها فقط في بيان القصص والخطب والمبادئ والمعانى الدقيقة، وأن في خزانتها نظاماً رائعاً للمفردات ينسجم مع نظام كل قصة، بحيث لا تحتاج إلى التراكيب، ولذلك أردنا توجيه أنظار القراء إلى خصائص العربية هذه لدى بيان هذه الخطبة والتمهيد وبعض المواضيع الأخرى التي تليهما، حتى يأتي المعارضون بمثله من لغاتهم إن استطاعوا، ويفسّلوا من جيئنها وصمة عارٍ قصورها عن بيان كل أمر ذي شأن بالمفردات وحدها، أما إذا لم يستطعوا ذلك، سواء كانوا من أنصار السننكريتية أو غيرها من اللغات، فعليهم أن يخجلوا من ذكر لغاتهم إزاء العربية في أي نادٍ أو مجلس، أو يتغفّلوا أبداً بأنّ لغتهم لغة إلحادية وبها نزل كلام الله تعالى.

ول يكن واضحاً الآن أن هذه الخطبة والتمهيد يحتويان على ثلاثة كلمة كلها كلمات مفردة، ذلك بالإضافة إلى الكلمات الأخرى المستقاة عنها، ولكنها ترکنا ذكرها. وهذه المفردات تشتمل على مئات العجائب واللطائف والخواص التي لو أردنا بيانها لاحتلنا إلى مجلّدات في الحقيقة، ولذلك نكتفي هنا ببيان مزايا كلمتين منها فقط نموذجاً ومثلاً، أما غيرها من المفردات فسوف نذكر محسنهها ومزاياها في مكان آخر إن شاء الله.

ولكن قبل ذلك نرى لزاماً بيان قاعدة مفيدة، وهي أننا إذا درسنا صحيفـة

كما جعل مِن لون واحد أنواع الألوان، وجعل العربية أُمّاً لكل لسان، وجعلها كالشمس بالضوء والمعان. هو الذي نطق بحمسه الثقلانِ، وأقرَّ بربوبيته الإِنْسُ والجَان، تسجد له الأرواح والأبدان،

الطبيعة، فلا بد لنا من الاعتراف أن الأشياء التي خلقت بيد الله تعالى وصدرت منه، إنما أولى علاماتها أنها تكون في حد نطاقها خادمةً لمعرفة الله تعالى، وتكشف بلسان حالمها أو مقاومتها أن الغرض المُحْقِق من وجودها أنها تكون وسيلة لمعرفة الله وخدمته لسيله؛ ذلك لأن إلقاء نظرة على كل أنواع المخلوقات يؤكد أن سلسلة الكائنات كلها مسخرة لتحقيق هذا المدف بشتى الأشكال والسبل.. أي أن تكون وسيلة لمعرفة الله تعالى وسبيله. وحيث إن اللغة العربية صادرة من لدن الله تعالى، فكان لزاماً أن تتوفر فيها هذه العالمة أيضاً، ليعلم يقيناً أنها حقاً من تلك الأشياء التي ظهرت من الله وحده بدون جهود البشر. فالحمد لله والمنة، على أن هذه العالمة توجد في العربية بشكل واضح جداً، فكما أن مفهوم قوله تعالى «وما خلقت الجن والإِنْس إِلَّا يعبدون» متحقق بصدق قوى الإنسان الأخرى، فهو متحقق كذلك في اللغة العربية أيضاً التي هي لغة الإنسان الأصلية وجزء من خلقتها. وأي شك في أن خلقة الإنسان لا تُعتبر أتم وأكمل خلقة بدون كلامه، لأن الأمر الذي يكشف جوهر الإنسانية في الإنسان إنما هو الكلام، ولن نبالغ لو قلنا: ليس المراد من الإنسانية إلا النطق بكل لوازمه. فقوله تعالى ما خلقت الإنسان إلا لعبادتي ومعرفتي إنما يماثل القول: لم أخلق الحقيقة الإنسانية - أي النطق والكلام وكل ما فيه من قوى وأفعال تابعة له - إلا من أجلي. ذلك أننا عندما نفك لمعرفة حقيقة الإنسان ندرك بوضوح أنه حيوان يتميز بكلامه عن الحيوانات الأخرى كليّةً، مما يدل على أن الكلام هو الحقيقة الأصلية للإنسان، أما قواه الأخرى فهي تابعة وخدامة لهذه الحقيقة. لذا فلو قلنا إن كلام الإنسان ليس من الله

والقلب واللسان يحمدان، سبحان ربنا رب ما يوجد وما يكون و كان، يفعل ما يشاء وكل يوم هو في شان. يُسَبِّحُ له كُلُّ ناطق و صامت، ويُبَيِّنُ رُحْمَه كُلُّ زانٍ و سامت، وهو رب العالمين، له

تعالى، للزمنا القول أيضًا إن إنسانية الإنسان ليست من الله تعالى، ولكن الواقع أن الله خالق الإنسان، ولذا فهو يَعْلَم معلم (اللسان) أيضًا.

أما ما هي اللغة التي علمها الله تعالى الإنسان، فقد قلنا آنفًا إن اللغة التي جاءت من لدنها يَعْلَم ليست إلا التي تكون خادمةً للمعرفة الإلهية تمامًا كما هي قوى الإنسان الأخرى، وفقًا لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّا وَالْإِنْسَا لِيَعْبُدُوْنَ﴾. وقد بيَّنا من قبل أن العربية وحدتها تتحلى بهذه الصفات. وتمثل الخدمة التي تسدِّيها العربية بهذا الشأن في أنها قادرة على الإيصال إلى معرفة الله تعالى، إذ تكشف من خلال مفرداتها ما يوجد في قانون الطبيعة من تقسيم معنوي للإلهيات كشفًا رائعاً، وتبرز ما يوجد في الصفات الإلهية من الفروق اللطيفة الدقيقة والمتجلية في صحيفة الفطرة، وتبيَّن الأدلة على توحيد الباري المتجلية في صحيفة القدرة نفسها، وتبيَّن المشيئة الإلهية بشتى أنواعها - والمتصلة بعباده والمتجلية في صحيفة القدرة - بياناً صريحاً واضحاً، وكأنها ترسمها لنا رسماً رائعاً جيلاً، وتكشف لنا بجلاء ما يوجد في أسماء الله وصفاته وأفعاله وإراداته التي يشهد عليها قانون الطبيعة من فروق دقيقة، وكأنها تضع صورةً لها أمام أعيننا. مما يوضح جلياً أن الله تعالى قد خلق اللغة العربية خادماً كفياً لكشف صفاته وأفعاله وإراداته يَعْلَم، وإثبات الانسجام والتوافق التام بين فعله وقوله يَعْلَم، فأراد من الأزل أن تكون هذه اللغة وحدتها مفتاحاً لسر الإلهيات المكتوب المختوم. ومن هنا تتجلى علينا هذه العظمة العجيبة والميزة الخاصة للعربية من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد أن اللغات كلها في ظلام ونقصان شديدين؛ ذلك أن العربية هي كالمرايا المقابلة لانعكاس صفات الله

الحمد والمجد وهو مولى النعم في الأولى والآخرة، والصلة والسلام على رسوله سيد الرسل ونور الأمم وخير البرية، وأصحابه الهادين المهتدين، وآلـه الطيبين المطهـرين، وجميع عباد الله الصالـحين.

تعالى وتعاليمه وأحكامه كلها حتى نرى فيها انعكاسا طبيعيا كاملا واضحا للإلهيات، بينما نجد كل لغة أخرى تعوزها هذه الميزة. وعندما نلقي النظر بعقل سليم وفهم مستقيم على تقسيم الصفات الإلهية الطبيعي المتحلي منذ الأزل في صحيفة الفطرة، نجد التقسيم نفسه بالضبط متحليا في مفردات العربية أيضا. فمثلا لو أعملنا الفكر لنعلم بناءً على التحقيق العقلي كيف انقسمت رحمة الله تعالى منذ البداية لاتضح لنا تماما ببرؤية قانون الطبيعة المتحلي أمام أعيننا أن رحمة الله نوعان: رحمة قبل العمل، ورحمة بعد العمل، لأن نظام تربية العباد يشهد بصوت عال على أن رحمة الله تجلت على بني آدم بنويعها من حيث تقسيمها الابتدائي كالتالي:

الرحمة من النوع الأول: هي تلك التي شملت العباد من دون وجود عملٍ عاملٍ، مثل وجود الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم والماء والهواء والنار وغيرها من النعم التي يتوقف عليها بقاء الإنسان وحياته، لأن هذه الأشياء كلها رحمة للإنسان بلا شك قد منحه الله إياها بمحض فضله وإحسانه بغير استحقاق منه. وهذا فيض رباني خاصٌ لا دخل لسؤال الإنسان فيه، بل إنه قد سبق وجود الإنسان. وإن هذه النعم لرحمة عظيمة تتوقف عليها حياته. ثم من البدئي الواضح أن هذه الأشياء لم تُخلق نتيجة عملٍ صالحٍ للإنسان، بل الحق أن علم الله السابق بذنب العباد لم يمنعه من التحلي بهذه الرحمة. ومهما كان أحد القائلين بالتميص والتناسخ غارقاً في تعصبه وجهمه إلا أنه لن يجرؤ على القول أن الله تعالى خلق الأرض لراحة الإنسان، أو خلق الشمس والقمر لتبييد ظلمتها، نتيجة عملٍ من أعماله الصالحة، أو خلق الماء والغلال جزاءً على حسنة من حسناته، أو

أما بعد.. فيقول عبد الله الأحد، أَحْمَد.. عَافَاهُ اللَّهُ وَأَيَّدَهُ، إِنِّي كُنْتُ مُولَعاً مِنْ شَرِّ الْزَّمَانِ، بِتَحْقِيقِ الْمَذَاهِبِ وَالْأَدِيَانِ، وَمَا رَضِيَتُ قُطُّ بِبِيَادِرِ الْكَلِمَاتِ، وَمَا قَنَعْتُ بِطَافِيِّ مِنَ الْخِيَالَاتِ، كُكْلَّ غَيِّرِ أَسِيرِ

خلق الهواء الذي يتتنفس به نتيجة زهره وقواه، ذلك أن هذه الأشياء موجودة قبل وجود الإنسان وحياته، وما لم نعتبر وجودها أولاً فتصور وجود الإنسان ضربٌ من الحال؛ فكيف يمكن إذن أن لا تظهر هذه الأشياء قبل الإنسان مع أنه بحاجة إليها لوجوده وحياته وبقائه. ثم إن وجود الإنسان هذا- الذي أُعِدَّ في أحسن تقويم منذ البداية- وغيره من الأمور كلها، قد سبقت تكميل الإنسان. وهذه هي الرحمة الخاصة التي لا دخل فيها لعمل الإنسان وعبادته ومجاهدته.

والرحمة من النوع الثاني، هي تلك التي تترتب على صالح أعمال الإنسان، فإذا دعا بضراعة استجيب دعاؤه، وإذا زرع بجهد زادت رحمة الله تعالى زرعه حتى أنتج ذخيراً وافرة من الغلال. كذلك يكشف لنا التعمق أن رحمة الله تشمل كل عمل صالح لنا، سواء كان يتعلق بالدين أو الدنيا، فحينما تقوم بجهد في أمر الدنيا أو الدين بحسب القوانين التي هي من سنن الله تعالى، تشملنا رحمة الله فوراً، وتشمر جهودنا.

إننا لا نستطيع العيش من دون هذين النوعين من الرحمة الإلهية. هل مِنْ أَحَد يشكُّ في وجودهما؟ كلا، بل هي من أجلِي البدويات وعليها مدار نظام حياتنا فلما ثبت أن القادر الكريم قد أَجْرَى هذين النعمتين من رحمته لتربيتنا وتكبيلنا، وأن هاتين الصفتين قد ظهرتا بطريقتين من أَجْلِ رَأْيِ شجرة وجودنا، فلعلنا الآن نرى بأي اسم دُعِيَ هذان النعمان في اللغة العربية بعد انعكاسهما فيها؟

فليكن واضحاً أن الله تعالى يُدعى في اللغة العربية رحماً بالنظر إلى النوع

الجهلات ومحبوس الخزعبلات، وما أصررتُ على باطل ككل جهول ضئين، وما حرّكني إلى أمر إلا أعينُ التحقيق، وما جرّني إلى عقيدة إلا قائد التعميق، وما فهّمني إلا ربِّي الذي هو خير المفهمين، وإنه

الأول من رحمته، ويدعى رحيمًا<sup>◎</sup> بالنظر إلى النوع الثاني من رحمته، وكشفًا لهذه الميزة في اللغة العربية قد ذكرنا اسم الرحمن في السطر الأول من هذه الخطبة العربية.

لقد لاحظتم بهذا المثال بأنه لما كانت صفة رحمة الله منقسمة في قانون القدرة إلى قسمين من حيث التقسيم الابتدائي، فلذلك توجد لهما مفردتان في العربية. وهذه القاعدة ستكون نافعةً جداً لطالب الحق.. أعني ضرورة اتخاذ صفات الله وأفعاله المتجلية في صحيفة القدرة معيارًا لمعرفة الفروق الدقيقة في اللغة العربية دائمًا، وأن نبحث في مفردات العربية عن أنواع الصفات الإلهية البدائية في قانون القدرة، وإذا أردنا كشف الفرق في الكلمات العربية المترادفة والمتعلقة بصفات الله وأفعاله، فعلينا أن نتوجه إلى التقسيم الموجود في قانون القدرة فيما يتعلق بصفات الله وأفعاله، لأن غرض العربية الحقيقي هو خدمة الإلهيات، كما أن الغرض الحقيقي لوجود الإنسان هو معرفة الباري تعالى. ومعلوم أنه لا يمكن اختبار كفاءة

◎ قد وردت في كتاب الدساتير للمجوس الكلمات التالية: "بَنَامِ اِيَزَدْ بِخَشَائِشِ كَرْمَهْرِ بازَادَ كَرْ" ، وهي تبدو مشابهة لبسم الله الرحمن الرحيم، ولكنها لا تبين ما يوجد بين الرحمن والرحيم من فرق حكيم، كما ليس في كلمة "ايَزَدْ" ما في كلمة "الله" من مفهوم واسع البتة. فشitan بين هذا التركيب المجنوس وبين البسمة. والأغلب أن هذه الكلمات كتبوها فيما بعد على سبيل السرقة. وعلى كل حال، هذا النقص الموجود في هذه الفقرة دليل على أنها من اختراع الإنسان. منه.

كشف على أسراراً من الحقائق، وأنزل على عهاد المعرف والدقائق، وأعطاني ما يعطي المخلصين. فلما وجدت الحق بفيضانه، ورُبِّيْتُ ببيانه، رأيْتُ شكر هذه الآلاء، في أن أمون خدمة الدين والشريعة

الشيء ومعرفة قواه إلا بالنظر في الغرض الذي خلق من أجله؛ فمثلاً قد خلق الثور للحراثة وجر الأثقال، فلو أهملنا غرض خلقه هذا وحاولنا تسخيره فيما هو من عمل كلاب الصيد مثلاً، فلا شك أنه سيعجز عن ذلك، وبيقف ذليلاً فاشلاً، ولكننا لو اختبرناه في مجال الغرض الذي خلق من أجله لأثبت وجوده بسرعة وأكد أنه يحمل عيناً ثقيراً فيما يتعلق بوسائل المعيشة الدنيوية. باختصار، إن كفاءة كل شيء لا تظهر إلا إذا اختبرناه في المجال الذي خلق من أجله. والحق أن المدف الحقيقي من وجود اللغة العربية هو الكشف عن وجه الإلهيات المنير. وكان أداء هذه المهمة المعقولة الحساسة جدًا على ما يرام دونما خطأً أمراً يفوق قوى الإنسان، فأنزل اللهُ الكريم القرآنَ الكريم بإعجاز خاضعٍ له الأعناق كلُّها، وذلك كشفاً لفصاحة اللغة العربية وبلاعتها والفارق الدقيقة بين مفرداتها والإيجاز الخارق لمركباتها. وإن ما كشفه القرآن من بلاغة العربية ومفرداتها ومركباتها لم يعترف به جهابذة اللغة العربية في ذلك العصر فحسب، بل قد أكدوا بعجزهم عن الإتيان بمثله أن القوى الإنسانية عاجزة عن بيان هذه الحقائق والمعارف وكشف الحسن الحقيقي للغة. فمن خلال هذا الوحي المقدس (القرآن) عرفنا الفرق بين كلمتي الرحمن والرحيم والذي سجلناه في الخطبة المذكورة نوذجاً فقط.

والواضح أن في كل لغة مترافاتٍ كثيرةً، ولكن لا يمكن أن نعتبرها مترافاتٍ علمية ما لم نفتح عيوننا لنعرف ما فيها من فروق دقيقة وما لم تكن من علم الله تعالى وتعليم دينه.

ولا يغيب عن البال أن الإنسان ليس بوسعيه اختراع مثل هذه المفردات من

الغراء، وأُرِيَ النَّاسُ نُورَ الدِّينِ الْمُتَّيِّنِ، وَأُرِيَ مَلْكُوتَهُ بِعُسَّاَكِرِ الْبَرَاهِينِ، وَأَرَاعِي شَؤُونَ صَدُوقٍ أَمِينٍ. وَمَا هَذَا إِلَّا فَضْلُ رَبِّي، إِنَّهُ أَرَانِي سُبُّ الْصَّادِقِينَ، وَعِلْمِي فَأَحْسَنْ تَعْلِيمِي، وَفَهْمِي فَأَكْمَلْ تَفْهِيمِي،

عنه، غير أنها إذا كانت مخلوقة بقدرة القادر فيمكن للإنسان أن يتدبّر فيها لعرفة فروقها الدقيقة ومناسبات استعمالها. خُذُّوا مثلاً مؤسسي علم الصرف وعلم النحو، فإنهم لم يأتوا بشيء جديد، ولم يخترعوا من عندهم قواعد جديدة ليتبعها الناس، إنما الحق أنهم نظروا في هذه اللغة الطبيعية بعيون مفتوحة، وأدركوا أنه يمكن وضع قواعد لها، فوضعوا هذه القواعد لها تسهيلاً للمعضلات. لقد وضع القرآن الكريم كل لفظ في محله، وهكذا أرى العالم ما هو الحال المناسب لاستعمال شتى المفردات العربية، وكيف أنها تخدم الإلهيات وتوجد بينها فروق دقيقة جداً.

علمًا أن القرآن الكريم يحتوي على عشرة أنواع لنظام المفردات:

أولاً: نظام المفردات الذي يتناول بيان وجود البارئ والدلائل على وجوده بِعَلِّهِ، وبيان صفات الله وأسمائه وأفعاله وسننه وعاداته التي هي -مع فروقها الدقيقة- مخصوصة بذات الله تعالى، وكذلك المفردات التي تتعلق بمدح الله وثنائه الكامل بجلاله وجماله وعظمته وكبريائه.

ثانياً: نظام المفردات التي تتعلق ببيان توحيد الباري والأدلة عليه.

ثالثاً: نظام المفردات التي جاءت في بيان الصفات والأفعال والأعمال والعادات والكيفيات الروحانية أو النفسانية التي تصدر وتشير من العباد أمم الله تعالى مع شتى فروقها، تبعًا لرضاه أو خلافاً له.

رابعاً: نظام المفردات التي تتعلق بآدبيات الله الكاملة من وصاياته وتعليم أخلاق وعقائد وحقوق العباد وعلوم حِكْمَةٍ وحدود وأحكام وأوامر ونواهي وحقائق ومعارف.

خامساً: نظام المفردات التي تبين ما هي النجاة الحقيقة وما هي الوسائل

وعصمني من طرق الخاطئين، وأوحى إلى أن الدين هو الإسلام، وأن الرسول هو المصطفى السيد الإمام، رسول أمي أمين. فكما أن ربنا أحد يستحق العبادة وحده، فكذلك رسولنا المطاع واحد لا بني

الحقيقة للفوز بها، وما هي آثار وعلامات المؤمنين الناجين المقربين. سادسا: نظام المفردات التي تبين ما هو الإسلام وما هو الكفر والشرك، وتشتمل على دلائل حقيقة الإسلام والدفاع عنه مما يثار ضده من اعترافات ومطاعن.

سابعا: نظام المفردات التي ترد على عقائد المعارضين الباطلة كلها.

ثامنا: نظام المفردات التي تتعلق بالإذنار والتبيشير والوعيد وبيان عالم المعاد أو المعجزات أو الأمثلة أو البوءات التي تزيد الإيمان أو تنطوي على مصالح أخرى، أو القصص التي فيها تنبية أو إنذار أو تبيشير.

تاسعا: نظام المفردات التي هي في بيان سوانح الرسول ﷺ وصفاته الطاهرة وحياته المباركة وأسوته الحسنة، والتي تشتمل على الدلائل الكاملة على نبوته أيضا.

عاشرًا: نظام المفردات التي تبين صفات القرآن الكريم وتأثيراته ومحاسنه الذاتية.

هذه عشرة نظم للمفردات توجد في القرآن الكريم وهي تشبه عشر حلقات دائرة بسبب كمالها التام، ويمكن أن نسميها الحلقات الدائرية العشر.

لقد استخدم الله تعالى في هذه الحلقات الدائرية العشر في القرآن الكريم مفردات طاهرة مباركة متميزة بعضها عن بعض بحيث يشهد العقل السليم فوراً على أن هذه السلسلة الكاملة والتابعة من المفردات لم توضع في اللغة العربية إلا لتكون خادمة القرآن الكريم، والأجل ذلك قد انسجمت هذه السلسلة من المفردات مع نظام تعليم القرآن الكريم أكمل انسجام وأتمه. أما سلسلة مفردات اللغات الأخرى التي يقال أن الكتب الأخرى - التي تسمى كتاباً سماوية - قد نزلت بها فليست منسجمة مع النظام التعليمي لهذه الكتب. كما لا توجد في تلك الكتب الحلقات

بعده، ولا شريك معه، وأنه خاتم النبيين. فاهتديتُ بـهداه، ورأيت الحق بـسنـاه، ورفعتـني يـداه، وربـاني ربـي كما يـربـي عـبـادـه المـذـوـبـين،

الـدائـرـية العـشـر المـشارـإـلـيـها. إذـن فـمـن أـكـبـر أـسـبـاب نـقـصـان تـلـك الـكـتـب اـفـتـقـارـها إـلـى هـذـه الـحـلـقـات الـدائـرـية الـضـرـورـيـة وـعـدـم اـنـسـجـام مـفـرـدـات لـغـاـهـا مـع نـظـامـها الـتـعـلـيمـيـ. وـالـسـرـ في ذـلـك أـنـ تـلـك الـكـتـب لـم تـكـن كـتـبـاً حـقـيقـيـةـ، وإنـما نـزـلـتُ لـسـدـ حـاجـاتـ عـابـرـةـ مـؤـقـتـةـ، وـلـمـ يـأـتـ إـلـى الدـنـيـا إـلـا كـتـابـ حـقـيقـيـ وـاحـدـ كانـ خـيـرـاً لـلـنـاسـ إـلـى الـأـبـدـ، وـلـذـلـك نـزـلـ بالـحـلـقـات الـدائـرـية العـشـر الـكـامـلـةـ، كـمـا اـنـسـجـامـ نـظـامـ مـفـرـدـاتـهـ مـعـ نـظـامـهـ الـتـعـلـيمـيـ كـلـ الـانـسـجـامـ، فـيـوـجـدـ فيـ كـلـ دـائـرـةـ مـنـ دـوـائـرـهـ العـشـرـ نـظـامـ لـمـفـرـدـاتـ مـنـسـجـمـ مـعـ نـظـامـهـ الـطـبـيـعـيـ فـيـهـ مـفـرـدـاتـ خـاصـةـ لـبـيـانـ كـلـ صـفـةـ مـنـ الصـفـاتـ الـإـلـهـيـةـ وـمـدـارـجـ الـأـقـسـامـ الـأـرـبـعـةـ الـمـذـكـورـةـ، وـيـوـجـدـ فـيـهـ إـزـاءـ دـائـرـةـ كـلـ تـعـلـيمـ دـائـرـةـ كـلـ الـمـفـرـدـاتـ كـامـلـةـ مـنـسـجـمـةـ مـعـهـاـ كـلـ الـانـسـجـامـ.

وـنـكـتـفـيـ بـهـذـا الـبـيـانـ بـهـذـا الصـدـدـ لـنـتـوـجـهـ لـبـيـانـ مـحـاسـنـ لـفـظـ آـخـرـ فـيـ الـعـرـبـيـةـ، وـهـوـ لـفـظـ "الـرـبـ"ـ الـذـيـ اـخـتـرـنـاهـ مـنـ الـكـلـمـاتـ الـقـرـآنـيـةـ. لـقـدـ وـرـدـ هـذـا الـلـفـظـ فـيـ أـوـلـ آـيـةـ مـنـ أـوـلـ سـوـرـةـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ، حـيـثـ قـالـ اللـهـ جـلـ شـانـهـ: ﴿الـحـمـدـ لـلـهـ رـبـ الـعـالـمـيـ﴾ـ. وـقـدـ وـرـدـ فـيـ "الـلـسانـ الـعـربـ"ـ وـ"ـتـاجـ الـعـرـوـسـ"ـ وـهـمـا قـامـوـسـانـ مـعـتـبـرـانـ جـدـاًـ. أـنـ الرـبـ لـهـ سـبـعـةـ مـعـانـ فـيـ الـعـرـبـيـةـ، وـهـيـ: الـمـالـكـ، الـسـيـدـ، الـمـدـبـرـ، الـمـرـبـيـ، الـقـيـمـ، الـمـنـعـمـ، الـمـنـمـ.

وـثـلـاثـةـ مـنـ هـذـهـ الـمـعـانـيـ سـبـعـةـ تـدـلـ عـلـىـ الـعـظـمـةـ الـذـاتـيـةـ اللـهـ تـعـالـىـ. فـالـمـالـكـ فـيـ الـعـرـبـيـةـ هـوـ الـذـيـ لـهـ قـمـلـكـ تـامـ عـلـىـ مـلـوـكـهـ، وـيـتـصـرـفـ فـيـهـ كـمـاـ يـشـاءـ، وـلـهـ كـلـ الـحـقـ عـلـيـهـ بـدـوـنـ مـشـارـكـةـ أـحـدـ. وـهـذـا الـلـفـظـ يـسـتـحـيلـ إـطـلـاقـهـ حـقـيقـةـ أـيـ بـعـنـاهـ الـأـصـلـيـ - عـلـىـ غـيـرـ اللـهـ تـعـالـىـ؛ لـأـنـ الـمـلـكـ الـتـامـ وـالـتـصـرـفـ الـتـامـ وـالـحـقـوقـ.

وهداني وأدراني، وأراني ما أراني، حتى عرفتُ الحق بالدلائل القاطعة، ووُجِدَتُ الحقيقة بالبراهين الساطعة، ووصلتُ إلى حق اليقين.

التامة ليست إلا لله تعالى.

أما السيد فهو في العربية من يتبعه السواد الأعظم بحماس قلبي وطاعة طبيعية. فالفرق بين الملك والسيد أن الملك يجعل الناس يطاعونه من خلال صرامة قوانينه، أما السيد فيتبعه الناس بحب وحماس قلبين اتباعاً عفويَا، وينادونه "سيِّدنا" بحب صادق، ومثل هذا الاتباع لا يتيسر للملك إلا إذا كان الناس يعتبرونه سيداً بالفعل. إذن فلفظ السيد أيضاً لا يُطلق حقيقةً – أي معناه الأصلي – إلا على الله تعالى، ذلك أن الطاعة بحماس حقيقي طبقي حال من شوائب أغراض النفس مستحيل إلا لله تعالى. هو الذي تطاعه وحده الأرواح طاعة صادقة، لأنَّه المبدأ الحقيقي لخلقها، فلذلك تسجد له كل روح طبعاً. إن عبادة الأصنام وعبدة الناس أيضاً يطاعونكم بحماس كما يطاعه المُوحَّد الصالح، ولكنهم خطئهم وقصور طلبهم لم يُعرِّفوا نبع الحياة الحقيقي، بل وضعوا بسبب عماليتهم هذا الحماس الطبيعي في غير موضعه، فاتّخذ بعضهم الأحجار، وبعضهم رام شندر، وبعضهم كرشنا، وبعضهم ابن مرِّيم، إلَّا والعياذ بالله، غير أنَّهم اخْتَذُوه إلَّا من تخدعُهم بأنَّه نفس المطلوب الذي يبحثون عنه. فقد هلك هؤلاء بمنْح المخلوق ما هو حق الله تعالى. كما اندفع أهل الهوى في البحث الروحاني عن هذا المحبوب والسيد الحقيقي، لأنَّه كان في قلوبهم أيضاً طلبُ محبوبٍ وسيدٍ حقيقيٍّ، ولكنهم لم يعرِّفوا أفكار قلوبهم حق المعرفة، فظنوا أنَّ المحبوب والسيد الحقيقي الذي تبحث عنه الأرواح والتي تُقْفَزُ لطاعته النغوس إنما هو أموال الدنيا وعقاراتها ولذتها، ولكنه كان خطأً منهم، لأنَّ الحافر للرغبات الروحانية والباعث على المشاعر الطاهرة إنما هو الذات الذي قال ﴿وَمَا حَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾.. أي

فأخذني الأسف على قلوب فسدتْ، وأنظارٌ زاغتْ، وعقولٌ فالتْ، وأراءٌ مالتْ، وأهواءٌ صالتْ، وأوباءٌ شاعتْ من إفساد المفسدين. ورأيتُ أن الناس أكبوا على الدنيا وزينتها، فلا يصغون إلى

أنا المقصود من وراء خلق الجن والإنس وقواهم كلها، وقد خلقتهم لكي يعرفوني ويعبدوني. فالله تعالى قد أشار في هذه الآية إلى أنه قد أودع خلْقَ الجن والإنس بذرة طلبه وطاعته ومعرفته بِهِ، ولو لا هذه البذرة في الإنسان لما وُجدت في الدنيا عبادة الأهواء ولا عبادة الأصنام ولا عبادة الناس؛ لأن كل خطأ نتج بحثاً عن الصواب. باختصار، إن السيادة الحقيقة مسلمة لتلك الذات، وهو السيد حقاً.

ومن الأسماء الثلاثة الدالة على عظمة الله تعالى؛ المدبرُ. والتدبير معناه الأخذ في الحسبان عند البدء في أي عمل، كُلَّ ما يتعلق بالأحداث الماضية والتنتائج القادمة ليوضع الشيء في محله نظراً إلى هذه الأمور كلها ولا يكون أي فعل من الحكمة. وهذا الاسم أيضاً لا يمكن إطلاقه بمعنى الحقيقى على غير الله تعالى، لأن التدبير الكامل موقف على معرفة الغيب، وهذا غير مسلم إلا لله تعالى.

أما الأسماء الأربع الباقية.. أعني المربي والقيم والنعم والتمم، فهي تدل على تلك الفيوض الإلهية التي هي جارية على العباد نتيجة ملكه الكامل وسيادته الكاملة وتدبيره الكامل. والمربي يعني في الظاهر من يقوم بالتربيه، وحقيقة التربية الكاملة هي أن تتم تربية كل فرع من الفروع المتعلقة بخلقة الإنسان من حيث جسمه وروحه وطاقاته وقدراته، وأن تتم سلسلة هذه التربية إلى جميع المراتب التي يتطلبها كمال هذه التربية من أجل الترقىيات المادية والروحانية للبشر. كما يطلق لفظ التربية أيضاً على إظهار وإبراز النقطة التي يبدأ منها اسم البشرية أو أساسياتها، ويتحرك منها نقش وجود البشر أو غيره من المخلوقات من العدم إلى الوجود. لقد تبيّنَ من هنا أن مفهوم الربوبية في العربية واسع جداً، فيطلق لفظ الربوبية بدءاً من نقطة العدم حتى الكمال التام للمخلوق. ولفظ الخالق وغيره من

الملة وأدلتها، ولا ينظرون إلى نُصارها ونَصْرَتها، ويُعرضون كأنهم مرتابون، وليسوا بمرتَابين، ولكنهم آثروا الدنيا على الدين. لا يقبلون لعَمِّيهِم دقائق العِرْفَان، ولا يرون علاء البراهين، وكيف وإنهم يؤثرون

الكلمات فروع من اسم الرب.

أما القيم فيعني الحافظ للنظام. وأما المنعم فهو الذي يمنع الإنسان أو غيره من المخلوقات كل نوع من الإنعام والإكرام الذي يمكن أن يناله بحسب قوته واستعداده والذي يطلبه طبعاً، لكي يبلغ كل مخلوق كماله التام كما قال الله جل شأنه ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ .. أي الذي أعطى كل شيء كمال خلقته المناسب له، ثم هداه إلى كمالاته المطلوبة الأخرى. فالإنعام يعني أن يُعطى الشيء أولاً ما يحتاج إليه من حيث وجوده من قوى وقدرات، ثم يُرشد إلى السبل التي تؤدي إلى ترقياته المترقبة.

أما المتمم فمعناه: الذي لا يترك أي جانب من جوانب سلسلة الغيوض هذه ناقصاً، بل يبلغ به حد الكمال.

فاسم الرب الذي ورد في القرآن الكريم والذي اقتبسناه في مستهل هذه الخطبة يشمل كل هذه المفاهيم الواسعة التي ذكرناها هنا بإيجاز.

والآن نقول بكل أسف إن أحد المسيحيين الإنجليز الجاهلين قد قال في كتابه أن من فضل المسيحية على الإسلام أنها ذكرت أن من أسماء الله الأب، وأن هذا الاسم جميل ورائع للغاية<sup>●</sup>، ولكن القرآن الكريم لم يذكره.

علمًا أن لفظ الأب أو "بَابٌ" أو FATHER لا يتضمن معنى الحب أبداً، فإن الفعل الذي يسمى بسيبه الإنسان أو الحيوان أباً لا يستلزم في بدايته الحب، إنما يتولد الحب شيئاً فشيئاً إثر رؤية الآخر والاستئناس به، أما الربوبية فالحب متلازم لها منذ البداية كميزة ذاتية. منه.

سبيل الشيطان، ويُصرّون على التكذيب والعدوان، ولا يسلكون محجة الصادقين. فطُفقتُ أدعوا الله ليؤتييني حُجَّةً تُفْحِمُ كُفَّارَ هذا الزمان، وتناسِبُ طبائعَ الحدثان، لأُبَكِّتَ سفهاءَهم وعُقلاَءَهم

ولكنني أستغرب من أن المعترض لم يفَكِّرْ عند كتابته هذه العبارة إلى ما منحته اللغةُ هذه الكلمةَ من عظمةٍ وتقديرٍ، لأنَّ التَّعْظِيمَ الْحَقِيقِيَّ إِنَّما تَنَاهَ الكلمةُ مِنْ خَالِلِ اللُّغَةِ وَحْدَهَا، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَمْنَحْ كَلْمَةً مَا مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِهِ تَعْظِيمًا لِمَا تَنَحَّهَا اللُّغَةُ إِيَّاهُ، وَلَذِلِكَ لَا يَخْرُجُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى أَيْضًا عَنِ الْالْتَزَامِ بِاللُّغَةِ. وَقَدْ أَجْمَعَ جَمِيعُ أَهْلِ الْعُقْلِ وَالنَّقْلِ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنِ الرِّجُوعِ إِلَى اللُّغَةِ أَوْ لِأَلْعَرْفَةِ عَظِيمَةٍ كَلْمَةً مَا، لِنَرَى الْعَظِيمَةَ الَّتِي حَلَّعَتْهُ عَلَيْهَا اللُّغَةُ الْأَصْلِيَّةُ الَّتِي مِنْهَا تَلَكَّ الكلمة. وَالآنِ إِذَا أَخَذْنَا هَذِهِ الْقَاعِدَةَ فِي الْحَسْبَانِ وَفَكَّرْنَا فِي كَلْمَةٍ "الْأَبُ" لَنْعَلِمْ عَظِيمَتَهَا مِنْ حِيثِ اللُّغَةِ، فَكُلُّ مَا نَعْرَفُهُ هُوَ أَنَّ إِنْسَانًا إِذَا وُلِدَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ نَطْفَةِ إِنْسَانٍ آخَرَ مِنْ دُونِ أَنْ يَكُونَ لِقَادِفِ النَّطْفَةِ أَيْ دَخَلَ فِي حَلْقَهُ، لَقَلَّا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَنْ فَلَانَا "أَبًّا" لِفَلَانٍ. أَمَا إِذَا أَرَدْنَا تَعْرِيفَ الْقَادِرِ الْمُطْلَقِ الْقَدْرَةِ بِأَنَّهُ خَالِقُ جَمِيعِ الْخَلْقِ بِإِرَادَتِهِ الْخَاصَّةِ، وَمُوَصِّلُهُمْ بِنَفْسِهِ إِلَى أُوجِ الْكَمَالِ، وَالْمُنْعِمُ عَلَيْهِمْ بِحَسْبِ مَقْتَضِيِ الْأَمْرِ نَتِيَّحَةٌ رَحْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَالْحَافِظُ وَالْقَيُّومُ، فَلَا تَسْمَعُ لَنَا اللُّغَةُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَبَدًا إِسْتِعْمَالٌ لِفَظِ "الْأَبُ" لِبِيَانِ هَذِهِ الْمَفْهُومِ، بَلْ وَضَعَتِ اللُّغَةُ لِبِيَانِ ذَلِكَ كَلْمَةً أُخْرَى وَهِيَ "الْرَّبُّ"، وَقَدْ بَيَّنَا تَعْرِيفَهَا عَلَى ضَوْءِ اللُّغَةِ آنَّهَا بِطَبَيْعَةِ الْحَالِ لَسْنَا مُخَوِّلِينَ أَنْ نَخْتَرُ مِنْ عَنْدِ أَنفُسِنَا لُغَةً جَدِيدَةً، بَلْ يَتَحَمَّلُونَا الْالْتَزَامُ بِالْكَلِمَاتِ الَّتِي وَضَعَهَا اللهُ تَعَالَى مِنْذِ الْقِدْمِ.

لَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ أَنَّ إِطْلَاقَ "الْأَبُ" عَلَى اللهِ تَعَالَى هُوَ مِنْ قَبْلِ الْإِسَاعَةِ وَالْهَجْوِ لِهِ تَعَالَى. وَالَّذِينَ نَسَبُوا إِلَى مَسِيحِ الْكُلُّ الْمُكْلُلِ بِهَتَّانِيَّ بِأَنَّهُ كَانَ يَدْعُو اللهَ تَعَالَى "أَبًّا"، وَكَانَ يَوْقِنُ أَنَّهُ تَعَالَى أَبُوهُ حَقِيقَةً، قَدْ أَلْصَقُوا بَيْنَ مَرِيمَ بِهَتَّانِيَّ شَيْئًا. هَلْ يَجُوزُ الْعُقْلُ أَنْ يَرْتَكِبَ مَسِيحُ الْكُلُّ هَذِهِ الْخَطَا -وَالْعِيَادَ بِاللهِ- فَيُسْتَخَدَمُ فِي

بأحسن البيان، وتنمّي الحجّة على المجرمين. فاستجابة ربِّي دعويٍّ، وحقٌّ لي مُنْيٍّ، وفتحٌ علىٰ باهَا كما كانت مسأليٍّ ومرادٍ مُهْجٍّ،

حقَّ الله - جل شأنه - كلمة رديئة وحقيرة - لغوياً - تدل على الضعف والعجز وعدم القدرة من كل النواحي؟ لم يكن ابن مريم مُخِيّراً في أن يختلف من عنده لغة جديدة ولا سيما تلك اللغة الرديئة التي تدل على جهل تام.

فما دامت اللغة لم تتوسّع في مفهوم كلمة "الأب" أكثر من أن ذَكْرًا يقذف نطفته في رحم أنسى، فتتحول النطفة تدريجًا إلى كيان ذي حياة، لكن ليس بقدرة قاذف النطفة بل بقدرة ذات أخرى، فيسمى قاذف النطفة في اللغة أباً. فكلمة "الأب" جد سخيفة ورديئة ولا تتضمن شائبة من معنى الربوبية أو الحب والإرادة كشرط، فمثلاً إن الكبش الذي يقفز على الشاة ويقذف فيها النطفة، أو الشور الفحل الذي يقع على البقرة ويسبع غُلْمته، ثم ينفصل عنها دون أن يذهب أن يفكر في إنجاب الأولاد، أو الخنزير الذي يندفع من جراء الشهوة العارمة ويظل مشغولاً بإشباعها ولا يقصد من وراء ثورّة شهوته المتكررة أن يولد له أولاد وتكثر الخنازير في الأرض، كما لم تودع غريزته هذا الشعور، ولكن حين يولد له أولاد يسمّي أباً لأولاده.

فما دامت لغات العالم كلها تتفق على أنه ليس في مفهوم لفظ "الأب" أن يؤدي بعد قذف نطفته أىًّا واجب آخر نحو إنجاب الأولاد، أو أن لا ينطوي هذا الأمر بحاله عند قذف النطفة، بل الحق أنه لم يُوهَب أى مخلوق هذه القدرة، بل لا تشرط كلمة "الأب" فكرة إنجاب الأولاد، وليس في مفهومها إلا قذف النطفة، بل قد سُمِّي أباً - لغةً - من منطلق واحد فقط وهو قذف النطفة. إذن فكيف يمكن إطلاق مثل هذه الكلمة - السخيفة باتفاق جميع اللغات - على القادر المطلق القدرة الذي تتم جميع أعماله بإرادته الكاملة وعلمه الكامل وقدرته الكاملة؟ وكيف يصبح أن تُطلق على الله تعالى الكلمة نفسها التي أطلقت على الكبش

وأعطاني الدلائل الجديدة البينة، والحجج القاطعة اليقينية، فالحمد لله المولى المعين.

والثور والخنزير أيضاً. ما أشنع هذه الإساءة التي لا يتورع منها المسيحيون الجهلة؟ لم يُعد لديهم حياء ولا خجل ولا إدراك بالقيم الإنسانية. لقد سقطت فكرة الكفار على قواهم البشرية سقوط الفالج حتى جعلتهم كسالي بليدين وفاقدي الشعور. لقد أدى هم الاعتماد على الفداء إلى أنهم يرون اليوم العمل الصالح أيضاً سخيفاً. ففي الفترة الأخيرة أي بتاريخ ٢١ يونيو/حزيران ١٨٩٥ نُشرت في جريدة "نور أفshan" الصادرة في "الدهيانت" عقيدة للديانة المسيحية عن الكفار وهي غاية في الخطورة حيث تُحث المُخترفين على الجريمة حثاً، وملخصها أن المسيحي المخلص ليس بحاجة إلى أعمال صالحة، إذ ورد أن لا دخل للأعمال الصالحة في النجاة، مما يعني بوضوح أن نيل شيء من مرضاه الله التي هي مدار النجاة محال بالأعمال، بل تكفي الكفارة لذلك.

فليفكرون المفكرون هنا في أنه إذا لم يكن للأعمال الصالحة دخل في مرضاه الله فكيف يمكن إذن أن تكون تصرفات المسيحيين سليمة؟ إذا كان الامتناع عن السرقة والزنا ليس مدعاه للثواب، فلم يُعد كلاً العَمَلَيْن يستحق المُواهِدَة. ومن هنا علمنا أنه لا يُجْرِيَ المسيحيين على الآتام إلا هذه العقيدة، بل يمكنهم أن يرتكبوا القتل واليمين الكاذب وما إلى ذلك، بناءً على المبدأ نفسه لأن الكفارة تكفيهم وتحمّل السيئات كلها. ويل مثل هذا الدين.

ول يكن معلوماً أن كلمة "الأب" التي يُطلقها المسيحيون الجاهلون على الله تعالى بغير حق مسيئين إليه تعالى إنما هي من الكلمات المشتركة.. أعني أنها من الكلمات العربية التي تُوجَد بـتغْيير بسيط في جميع اللغات الأخرى التي تفرعَت منها. فالحق أن كلمات Father (في الإنجليزية) وپتا (في الهندية) وباب (في

وتفصيل ذلك أنه صرف قلبي إلى تحقيق الألسنة، وأعان نظري في تنقيد اللغات المترفة، وعلّماني أن العربية أمّها وجامعٌ كيفٍها وكمّها،

(الأردنية) كلها أشكال مشوهة لهذه الكلمة العربية، وستتناول ذكرها في محلها بإذن الله تعالى. وقد استمدّت هذه الكلمة من حيث اللغة من أربعة جذور كالأتي.

١- إباء: الإباء هو الماء الذي لا ينضب. فيما أن ماء النطفة يظل يتكون في الرجل إلى مدة طويلة، ومن هذا الماء نفسه يخلق الله الحكيم ذو الجلال "الطفل"، لذلك سمي مصدر هذا الماء بـ "أب". ومن هذا المطلق يطلق العرب على فرج المرأة "أبو دارس"، والدارس يعني الحيض، فيما أن الحيض أيضا لا ينقطع إلى مدة طويلة فقد عُدَّ ماءً على سبيل المجاز وُسُمِّي الفرج أبو دارس، وكأنه بئر لا ينقطع ماؤها.

٢- استمدّت كلمة الأب من "أبي"، لأن "أبي" في العربية يعني امتناع وتوقف أيضا، فيما أن الذكر الذي يُسمى الأب يتوقف بعد قذف النطفة ولا يقوم بعد ذلك بأي شيء آخر، بل "الأم" -التي هي أوسع معنى من "الأب"- تتلقى في رحمها نطفة "الأب" التي تتغذى على دمها، الأمر الذي رُوعي أيضا في تسمية "الأب".

٣- إن كلمة الأب مشتقة من "الأباء" التي تعني القصب، وذلك لمشابهة ذكر الرجل بالقصب.

٤- إنما مشتقة من "أبي"، ومعناه زوال الاستهاء، ولما كانت شهوة الرجل تزول بعد الجماع، فروعي هذا المعنى أيضا في سبب تسمية "الأب".

وأنها لسانٌ أصليٌّ نوع الإنسان، ولغة إلهامية من حضرة الرحمن، وتنتمي لخُلُقِ البشر من أحسن الحالين.

باختصار، هذه هي الأجزاء الأربع التي يتضمنها قانون القدرة المتعلقة بالأب، وبناءً عليها سُمي الأب "أباً". فإذا عرفنا سبب تسمية الأب علمنا أيضاً سبب تسمية الأسماء التي تُستعمل في اللغات الأخرى للوالد بدلاً من الأب مثل: باپ، Father، پدر، وپتا، وغيرها، لأن جميع اللغات تفرعت من العربية، وهذه التسميات ليست إلا صورة مشوهة للتسمية العربية. والآن ينبغي أن يفكر هؤلاء مع الالتزام بمبادئ الحياة: هل يجوز أن يطلق على الله تعالى هذا اللفظ الذي عرفنَا أسباب تسميَّته؟

ولو قيل: لماذا إذن أطلقت الكتب السابقة هذا الاسم على الله تعالى؟ فجوابه: أولاً أن جميع تلك الكتب محرفة ومبَدَّلة وقولها المنافي للحق والحقيقة لا يجدر بالقبول أبداً، لأنها أصبحت الآن كالوحل القذر الذي ينبغي أن يتجنبه الإنسان الطاهر الطبع.

ولكن لو افترضنا جدلاً أن التوراة تضمنت مثل هذه الكلمات فعلاً، فنقول: من الممكن أن تكون لها معانٌ أخرى تختلف مفهوم الأب، ذلك أن نطاق معانٍ الكلمات واسع جداً.

أما لو افترضنا أن هذه الكلمة لا تعني إلا المعنى المذكور، فيمكن الرد عليه كالتالي: بما أن بني إسرائيل وفروعهم من بعدهم كانوا يعانون من الانحطاط الشديد في ذلك الزمن، ويعيشون كالوحش، فما كان لهم أن يفهموا المعنى الطاهر والكامل الكامن في اسم "الرب"، فبَيْنَ لهم الوحي الإلهي مفهوم لفظ الرب بكلمات يفهمونها نظراً إلى حالتهم المتردية. وهذه القضية تمثل قصة "عالَم المزاد"، فإن التوراة لم تصرّح بذلك العالَم كما ينبغي، بل اكتفت بالترغيب في الأطماء المادية والإندار عن الآفات الدنيوية فحسب، ذلك لأن تلك الأقوام لم

ثم عُلِّمَتُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ ذِي الْقَدْرَةِ، أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ مَخْزَنٌ دَلَائِلُ النَّبُوَّةِ،  
وَمَجْمُعٌ شَوَاهِدٌ عَظِيمٌ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا لِخَيْرِ النَّعَمَيْنِ.  
وَقَادِنِي دَاعِيُ الشَّوْقِ إِلَى التَّوْغِّلِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَالْتَّبَحَّرِ فِي هَذِهِ الْلَّهَجَةِ،

تُكَنْ لِتَفَهُّمِ فِي ذَلِكَ الزَّمِنِ تَفَاصِيلِ عَالَمِ الْمَعَادِ، فَأَفْضَى هَذَا الذَّكْرُ إِلَيْهِ إِلَى  
وَجُودِ فِرْقَةٍ مُنْكِرَةٍ لِلْقِيَامَةِ بَيْنِ الْيَهُودِ، كَذَلِكَ فَإِنَّ اسْتِخْدَامَ تَسْمِيَّةِ "الْأَبِ" أَدَى  
بِأَمَّةٍ جَاهِلَةٍ .. أَعْنَى الْمُسَيْحِيِّينَ .. إِلَى اتِّخَادِ الْعَبْدِ الْعَاجِزِ إِلَيْهَا. غَيْرُ أَنَّ هَذِهِ التَّعْبِيرَاتِ  
قَدْ اسْتُخْدِمَتْ عَلَى سَيِّلِ الاضْطَرَارِ نَظَرًا إِلَى الْخَطَاطِ هُؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِذْ كَانَتْ  
تَعْلِيمَ كَتَبِهِمْ مَحْدُودَةً، وَكَانَتْ كُلُّهَا سَتُّسَخَّنَ عَاجِلًا فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، فَأَجَازَ  
هُؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُتَرَدِّيِّنَ فَكَرِيًّا اسْتِخْدَامَ مُثْلِهِنَّ التَّعْبِيرَاتِ. ثُمَّ لَمَّا جَاءَ إِلَى الدُّنْيَا  
ذَلِكَ الْكِتَابُ الَّذِي يُرِيُّ النُّورَ الْحَقِيقِيَّ، فَمَا كَانَ ثُمَّةَ حَاجَةٍ إِلَى النُّورِ الَّذِي يُخَالِطُهُ  
الظَّلَامُ، بَلْ رَجَعَ الزَّمِنُ إِلَى حَالَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ وَعَادَتِ الْكَلِمَاتِ كُلُّهَا إِلَى حَقِيقَتِهَا  
الْأَصْلِيَّةِ. وَهَذَا هُوَ السُّرُورُ إِتْيَانِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِإِعْجَازِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، إِذْ  
كَانَتِ الدُّنْيَا بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ الْوَضْعِ الْأَصْلِيِّ لِلْلُّغَةِ، فَوْضُعَ الْقُرْآنُ كُلُّ  
كَلِمةٍ فِي مَوْضِعِهَا، وَكَشَفَ الْفَصَاحَةَ وَالْبَلَاغَةَ كَشْفًا فَصَارَتَا كَالْعَيْنِيْنَ لِرَؤْيَاِيَّةِ  
الدِّينِ. أَمَّا الْأَمَمُ الْسَّابِقَةُ فَظَلَّتْ غَافِلَةً تَمَامًا عَنْ أَنْ تَجْعَلِ الْلُّغَةَ خَادِمَةً لِكَشْفِ  
أَسْرَارِ الدِّينِ، غَيْرُ أَنَّهَا كَانَتْ مُضْطَرَّةً لِأَنَّهَا كَانَتْ حَاوِيَةً لِلْوَفَاضِ فِي هَذَا الْمَحَالِ،  
إِذْ كَانَتْ لِغَائِكُمَا مَشْوَهَةً رَدِيَّةً بِكُمْمَاءِ عَاجِزَةً عَنْ بَيَانِ وَجْهِ التَّسْمِيَّةِ لِلْمَفَرَدَاتِ  
وَالْأَسْمَاءِ. لَمْ يَكُنْ لِدِيْهَا نَظَامٌ لِلْمَفَرَدَاتِ، وَلَا رَأْسَمَالٌ مِنْ اطْرَادٍ جَذُورَ الْأَلْفَاظِ،  
بَلْ كَانَتْ كَأَحْجَارَ بَنَاءٍ مَتَهَّدِمٍ خَرَبٌ لَمْ يَعْدْ فِيهِ أُثْرٌ لِلتَّرْتِيبِ الْطَّبِيعِيِّ، فَأَنَّى لِتَلْكَ  
اللُّغَاتِ الرَّدِيَّةِ أَنْ تَسْاعِدُهُمْ فِي الإِلَهِيَّاتِ، وَلَذِلِكَ هَلَكَتْ تَلْكَ الْأَمَمُ كُلُّهَا. ثُمَّ  
نَزَلَ بَعْدِهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِلُغَةٍ مُتَكَامِلَةٍ مُتَسَمَّةٍ بِكُلِّ هَذِهِ الْمَحَاسِنِ وَالْمَزَایَا، وَلَذِلِكَ  
ظَلَّ الْإِسْلَامُ مَحْفُوظًا مِنَ الْخَرَابِ وَلَمْ يَأْخُذْ فِيهِ الْمَخْلُوقُ مَكَانًا إِلَّا قَادِرًا.  
كَنَا نُودِّ شَرْحَ الْمَزِيدِ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْعَرَبِيَّةِ لِبَيَانِ مَدِيِّ احْتِوَاءِ الْمَفَرَدَاتِ الْعَرَبِيَّةِ

فوردتُ لُجّتها بحسب الطاقة البشرية، ودخلتُ مديتها بالنصرة الإلهية، وشرعتُ الاختراقَ في سُبُلها ومسالكها، والانصلاقاتَ في طرقها وسِكِّكها، لأستعرفَ رببةَ خدْرِها، وأذوقَ عصيدةَ قِدْرِها،

على الحقائق السامية، ولكننا ننهي هذا الموضوع هنا للأسف مخافة الإطالة. غير أنَّ الثالثةَ كلمة التي سجلناها في الكتاب إنما كتبناها ليأتي معارضونا بمثلها من لغاتهم، فمن واجبهم مثلاً أن يأتوا بخطبة مماثلة وتمهيد مماثل عن الكلمات المفردة، لنرى ما في لغاتهم من مفردات، وما إذا كانت مفرداتها تساعدهم على بيان موضوع ما، وما إذا كان عندهم نظام للمفردات فعلاً، أم أنهن يُطْلُبون دعاوى فارغة.

ونرى من المفيد أن نرِّد هنا على بعض الشبهات والوساوس التي أثارها ميكسلر في كتابه "الحاضرات" المجلد الأول تحت عنوان "علم اللسان". وفيما يلي شبهاته على منوال: قوله، وردودي عليها على منوال: وأقول.

قوله: من الواقع التي حالت دون رقي العلم أن بعض الأمم استخفت بالأمم الأخرى واحتقرتها ونابذتها بألقاب مزدرية، مما حرَّمها من تعلُّم لغات الأمم المُحَقَّرة، ولم يبدأ علم اللسان إلا بعد إخراج هذه الكلمات المزدرية.. مثل الهمجي والعجمي.. من قاموس الإنسانية، واستبدلَها بلفظ "الأخ"، والاعتراف بحق جميع الأمم في كونها من جنس واحد.

أقول: يبدو من قول ميكسلر أنه يطعن هنا في العرب في الواقع، حيث يرى أنَّ العرب الذين يسمّون أهل اللغات الأخرى عجمًا، إنما اخترعوا هذه التسمية حسداً وتعصباً واحتقاراً للشعوب الأخرى. ولكن هذا خطأ منه وقد وقع فيه لأنَّ الحسد المسيحي منعه من النظر فيما إذا كانت كلمات العرب والعجم من اختراع البشر أم من عند الله تعالى، مع أنه قد أقرَّ في كتابه أنه ليس بوسع إنسان اختراع مفردات اللغة.

وأجتنيَ ثمار أشجارها، وأُخرجَ دُرَّ بحارها، فصرتُ بفضل الله من الفائزين. ولم يُفْتِنْ بها مطلع، ولا خلا مني مرتע، ورأيتُ نضرتها، ورعيتُ حضرتها، وأُعطيتُ من ربي حظاً كثيراً، ودخلأً كبيراً في

فليكنْ واضحاً له ولمن لفَ لفيفه، أن في اللغة العربية كلمتين قد وقعتا متعاكستين في فحواهما، إحداهما "العَرَب" التي معناها: فصحاء اللسان وببلغاؤه، والأُخرى التي تعاكسها هي "العَجَم" ومعناها: غير الفصحاء الذين حضرتُ ألسنتهم. وإذا كان ميكسمل يرى أنهما ليستا كلمتين قد يمتان وأن الإسلام هو الذي اخترعهما حسداً وتعصباً، فعليه أن يدلي على أثر للكلمتين اللتين كانتا أصليتين في رأيه، إذ من المستحيل أن لا يكون بشعب ما أي اسم منذ القديم. وما دامت هاتان الكلمتان قد يمتان، فلزم الاعتراف أنهما ليستا من اختراع الإنسان، بل الله القادر وعالم الغيب الذي خلق الناس مزودين بكفاءات متفاوتة، هو الذي قد سماهما بمتين التسميتين بالنظر إلى كفاءاتهما المختلفة.

والدليل الثاني على ذلك هو أنه إذا كان أحد من البشر قد اخترع هذين الاسمين "العرب والعجم" احتقاراً وتعصباً، فلا بد أن يكونا خلاف الواقع وكذباً لا دليل عليه، ولكننا قد أثبتنا في هذا الكتاب نفسه أن لفظ "العَرَب" اسم على المسمى في الحقيقة، وأن من الحقائق الثابتة أن العربية تتبواً - من حيث نظام مفرادها ولطافة تراكيبها وغيرها من عجائبها وغرائبها - مكانة رفيعة لا يسع المرء بعدها إلا القول إن اللغات الأخرى تبدو بكماء إزاءها. وعندما نجدها بكماء إزاء العربية، بل نجدها كجمادات لا حراك بها، ومتقرفةً إلى حركة اطراد المواد (المفردات) بحيث تبدو بلا حياة، فلا نملك إلا الاعتراف أن تلك اللغات متربدةً جداً، وأن العربية قد استعملت في الواقع لفظاً ليَّنا جداً عند وصفها غيرَ العرب عَجَماً، إذ لم تكن تلك اللغات ولا أصحابها يستحقون هذه التسمية أيضاً. ولو وصفنا حالة تلك اللغات المتربدة وصفاً صحيحاً لكان

عربي مبين. حتى إذا حصلتْ لي دُرُّها وَدَرُّها، وَكُشِّفَ عَلَيَّ مَعْدُنَاهَا وَمَقْرَرُهَا، وأَرَانِي رَبِّي أَنَّهَا وَحْيٌ كَرِيمٌ، وَأَصْلٌ عَظِيمٌ لِمَعْرِفَةِ الدِّينِ، وَأَنْ شُهَبَهَا تَرْجِمُ الشَّيَاطِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ رَأَيْتُ لُغَاتٍ أُخْرَى كَخَضْرَاءِ

الأولى أَنْ تُسَمَّى لُغَاتٍ مِيَّةً.

عَلَى أَيَّةِ حَالٍ، إِنَّا لَا نُعْرِضُ هَذِهِ الْمَقْدِمَةَ إِلَّا كَمُحَرَّدٍ ادْعَاءَ فَارِغٍ، بَلْ قَدْ نَشَرْنَا مَعَ هَذِهِ الْكِتَابِ إِعْلَانًا لِتَقْلِيمِ جَائِزَةِ قَدْرِهَا خَمْسَةُ آلَافٍ رُوْيَاةً حَسِّمًا لِلْحَصَامِ. فَإِذَا كَذَّبَ أَحَدٌ بِيَانَنَا هَذَا، سَوَاءٌ مِيكَسْمِلُ أَوْ غَيْرُهُ، فَالْأَوْلَى بِهِ أَنْ يُؤْكِدَ صَحَّةَ تَبَاهِيهِ وَتَبَحْجِمَهُ بِأَدْلَةٍ مُقْنِعَةٍ، وَيَأْخُذَ مِنْ جَائِزَةِ خَمْسَةِ آلَافٍ رُوْيَاةً نَقْدًا.

إِنِّي أَتَأْسِفُ عَلَى مِيكَسْمِلِ كَثِيرًا إِذَا أَثْارَ اعْتِرَاضًا يَتَنَافَى مَعَ مَا وَرَدَ فِي كُتُبِهِ الْمَقْدِسَةِ مَعَ أَنَّهُ يُسَمِّي نَفْسَهُ مَسِيْحِيًّا، فَإِنَّ كَتَبَهُمُ الْمَقْدِسَةِ نَفْسَهَا قَدْ ذُكِرَتْ الْعَرَبُ بِلِفْظِ "الْعَرَبُ" (انْظُرْ إِشْعَيَا، الْإِصْحَاحُ ٢١: وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ بِلَادِ الْعَرَبِ). أَنْسَى الإِنْجِيلُ عِنْدَ ثُورَةِ التَّعَصُّبِ وَالْعَنَادِ؟ اقْرَأُوا "أَعْمَالَ الرَّسُلِ" تَرَوُا أَنَّ إِلَهَهُمْ ذَكَرَ الْعَرَبَ بِلِفْظِ "الْعَرَبُ" فَقَطْ. فَمَا دَامَتْ كَتَبَهُمُ الْمَقْدِسَةِ أَيْضًا تَحْافَظُ عَلَى احْتِرَامِ كَلْمَةِ "الْعَرَبُ" الَّذِي ضَدَّهُ الْعَجْمُ، فَالْمُؤْسِفُ حَقًا أَنَّهُمْ مَا اسْتِسَاغُوا احْتِرَامَ هَذَا الْإِسْمِ مَعَ كَوْنِهِمْ مَسِيْحِيِّينَ، كَمَا لَمْ يَقْبِلُوا الْإِسْمَ الْآخَرَ الْمَحَذِّي لَهُ. كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفْكِرُوا أَنْ كَتَبَهُمُ الْمَقْدِسَةِ قَدْ صَدَّقَتْ مَا فِي كَلْمَةِ "الْعَرَبُ" مِنْ مَفْهُومِ مَقْدِسٍ، وَمَنْ أَجْلَ ذَلِكَ فَقَدْ سَيَّطَ الْعَرَبَ فِي أَمَّاْكِنَ كَثِيرَةٍ بِاسْمِ "الْعَرَبُ" الَّذِي يُشِيرُ إِلَى مِيَّةِ الْفَصَاحَةِ فِيهِمْ. إِذْنَ فَقْبِلِ وَجْهِ الإِنْجِيلِ أَيْضًا قَدْ وَرَدَتْ كَلْمَةُ الْعَرَبِ فِي التُّورَاةِ مَرَارًا وَتَكْرَارًا، وَالْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ تَبَأَّلُوا عَنِ الْعَرَبِ قَدْ اسْتَخَدَمُوا كَلْمَةَ "الْعَرَبُ" نَفْسَهَا. فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْكَلْمَةِ لِيَسْتَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَلَزِمَ الْقَوْلِ إِنَّ الإِنْجِيلَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْكِتَابِ الَّتِي تُعَدُّ كَتَبًا مَقْدِسَةً لِيَسْتَ

الدِّمَنْ، ووْجَدَتْ دَارَهَا خَرْبَةً وَأَهْلَهَا فِي الْمَنْ، ووْجَدَتْهَا شَادَّةَ الرَّحَالَ لِلظُّنُنِ كَالْمُتَغَرِّبِينَ، فَأَلْقَى فِي رُوعِي أَنْ أَوْلَفَ كِتَابًا فِي هَذَا الْبَابِ، وَأَضَعَ الْحَقَّ أَمَامَ أَعْيْنِ الطَّلَابِ، وَأَحْسَنَ إِلَى الْخَلْقِ كَمَا أَحْسَنَ إِلَيْهِ

مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَبِالْتَّالِي لَا بُدَّ مِنَ التَّخْلِي عَنْ تَلْكَ الْكِتَابِ كُلَّهَا بِسَبِّ هَذَا الْحَسَدِ وَالْتَّعْصِبِ.

قوله: في رأيي إن علم اللسان قد بدأ في الواقع من أول يوم البتاكوستي. <sup>◎</sup>  
أقول: لأنه قد ورد في أعمال الرسل أن الحواريين كانوا يتحدثون بعدة لغات،

◎ هو عيد البنتكستي أو البنطيقستي أو البنتاكوستي أو البنتيكوسن أو عيد الخمسين أو حلول الروح القدس بحسب العقيدة المسيحية. سمي عيد حلول الروح القدس بعيد العنصرة عندهم لأنه كان من أهم أيام اليهود عيد يعرف بعيد العنصرة، وهي كلمة عبرية معناها "الجمع" أو "الاجتماع" أو "الحفل المقدس"، لأنهم فيه كانوا يجتمعون ويعبدون... وجاءت المسيحية فدعت عيد حلول الروح القدس باسم "عيد العنصرة" لأن الروح القدس - حسب اعتقادهم - حلّ فيه على جماعة التلاميذ وهم مجتمعون في العليّة.

وسمى عيد حلول الروح القدس بعيد الخمسين ("البنطيقستي" باليونانية) لأن عيد العنصرة عند اليهود كان معروفاً باسم "عيد الأسابيع" أو "عيد الخمسين" ، لأنه كان يأتي بعد 7 أسابيع من ثاني يوم عيد الفصح أي في اليوم الخمسين من عيد الفصح.

وجاءت المسيحية فدعت عيد حلول الروح باسم "عيد الخمسين" ، [عيد البنطيقستي] لأنه يقع في اليوم الخمسين من قيامة الرب - كما يعتقدون. (المترجم)

رب الأرباب، لعل الله يهدي به نفساً إلى أمور الصواب، وما أبتغي به إلا رضا رب الوهاب، وهو مقصودي لا مدح العالمين. وإن ما خرّجتُ شيئاً من عيبي، فبأي حق أطلب محمدي. ووالله ما خرّجتْ

فيحتاج ميكسلر بذلك على أن الديانة المسيحية هي التي قد وضعت أساساً للتحقيق في اللغات.

فلينظر ذوو الرأي والنظر إلى مدى تعصب هذا الكاتب بناءً على كلمات لا أصل لها. يجب ألا يغيب عن البال أنه قد ورد في الباب الثاني من أعمال الرسل صراحةً أن الحواريين إنما تحدثوا يومذاك بلغات كان يتحدث بها يهودُ أورشليم، وليس أكمن تحدثوا عندها بالصينية أو السنسكريتية أو اليابانية، بل قد ورد هنالك بوضوح أن جميع اليهود كانوا يفهمون تلك اللغات كلها لأنما كانت محاكية في أورشليم. فأي كرامة في ذلك للحواريين؟ بل الواقع أن تقسيم مثل هذه الأمور في هذا العصر مجبلة للخجل. أليس ممكناً أن يتقن الحواريون أيضاً اللغات التي كان يحيكها بكثرة قومهم وأقاربهم المقيمين في المدينة نفسها؟ فما دام الشعب واحداً، والمدينة هي هي، والأقارب هم هم، وما دامت الحضارة تقتضي أن يكون بعضهم ملماً بلغة بعض بحكم القرابة والعلاقات واللقاءات والمعاملات ليل نمار، فكيف يُستبعد أن يكون الحواريون ملمين بلغات إخوهم الأعزاء؟ هذا النوع من الكرامة ليس أغربَ من أعمال الشعوذة التي يأتي بها النساك الهندوس في لاهور أحياً.

لو قال ميكسلر إن علم اللسان نشأ على يد أعداء المسيح الألداء، وهم الذين أسسوا هذا الأمر في البداية، لبدا كلامه سليماً، لأن هناك اعترافاً في الإصلاح نفسه

من فمي كلمة، وما انكشفت عليّ حقيقةٌ إلا بتفهيمه، وما علمتُ شيئاً إلا بتعليمه، والله يعلم وهو خير الشاهدين. فلا تُثْنِ عَلَيْ بِصَالِحٍ في هذه الخطة، واسكروا الله فإن كلها من حضرة العزة، هو الذي أحسن إلَيْ و هو خير المحسنين.

وإنني رتبتُ هذا الكتاب على مقدمة وأبواب وختامة لطلاب، ولا قوة إلا ب الكريم ذي قوة، ولا قدرة إلا بقدير ذي عظمة، نرجو فضله

من أعمال الرسل بأن اليهود كانوا يتحدثون بتلك اللغات نفسها منذ مدة طويلة في المدينة التي كان الحواريون يسكنون فيها، فالتقدُّم في هذا المجال ثابت لليهود، ويكفي الحواريين تكريّماً القولُ إنهم لم يكونوا كسائر مثل المشعوذين، بل تعلّموا تلك اللغات من أقاربهم إذ تربّوا بين ظهيرانيهم.

والحق أنه لم يوجد في العالم مَنْ وجَّهَ إِلَى علم اللسان سوى القرآن الكريم، فإن هذا الكلام المقدس الذي قال: ﴿وَمَنْ آتَيْهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ الْأَسْتِكْمُ وَالْأَوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الروم).. أيٌّ مِنَ الآيات الدالة على وجود البارئ ووحدانيته بِهِمْ خلق السماوات والأرض واختلاف لغاتكم وألوانكم، إنها آيات عظيمة لمعرفة الله، ولكن للذين هم أهل العلم.

فانظر إلى مدى حُثُّ القرآن الكريم على التحقيق في الألسنة حتى عدَّ هذا العمل مداراً لمعرفة الله تعالى. هل توجد في الإنجيل آية مثلها؟ أقول بكل تحدٍ: كلا. فيا للحياة.

ونطلب رُحْمَهُ وهو أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. وَإِنَّا شَرِعْنَا بِاسْمِهِ، وَنَخْتَمُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِفَضْلِهِ، وَهُوَ خَيْرُ الْمُتَفَضِّلِينَ، وَهُوَ الْمَوْلَى الْمَعْنَى، فَإِيَّاهُ نَعْبُدُ وَإِيَّاهُ نَسْتَعِينُ. وَنَرِيدُ أَنْ تُرِيَ مَحَامِدَهُ عَلَى رَاحِلَةِ قَصِيَّةٍ<sup>✽</sup>، وَنَزِّيَّنَاهَا بِزَهْرِ أَشْعَارِ جَدِيدَةٍ، مَعَ نَعْتِ رَسُولِ هَادِي كُلَّ نَفْسٍ سَعِيَّدَةٍ، لَعَلَّ اللَّهَ يَقْبِلُ هَذِهِ الْهُدْيَةَ، وَيَجْعَلُ فِي كِتَابِي الْبَرَكَةَ، وَاللَّهُ يُعْطِي مَنْ يَطْلَبُ، فَبَشِّرِي لِلْطَّالِبِينَ.

---

<sup>✽</sup> وَرَدَ هَذَا فِي الْحَاشِيَةِ بِاللُّغَةِ الْأَرْدِيَّةِ مَا تَعْرِيهِ: بَدَأَتُ نَظَمَ هَذِهِ الْقَصِيَّةَ يَوْمَ الْاثْنَيْنِ بِتَارِيخِ ١٥ يُولِيُو (تَمُوز) عَام ١٨٩٥ م بَعْدِ السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ صَبَاحًا، وَنَظَمْتُ مَئَةً بَيْتٍ قَبْلَ السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ عَصْرًا فِي الْيَوْمِ نَفْسِي، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ وَتَأْيِيْدُهُ الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ. مِنْهُ.

## القصيدة

في حمد حضرة العزة

ونعمت خير البرية

ثُنْيَ عَلَيْكَ وَلَيْسَ حَوْلُ شَاءِ  
يَا مَلِحْيَّ يَا كَاشِفَ الْعَمَاءِ  
فِي هَذِهِ الدِّنِيَا وَبَعْدَ فَنَاءِ  
فَارَ حَمْ وَأَنْزَلَنَا بَدَارَ ضِيَاءِ  
ثُنْجِي رَقَابَ النَّاسِ مِنْ أَعْبَاءِ  
وَعَلَيْكَ كُلُّ تَوْكِلِي وَرَجَائِي  
فَشَرِبْتُ رَوْحَاءَ عَلَى رَوْحَاءِ  
يُدْرِي بِذِكْرِكَ فِي التَّرَابِ نَدَائِي  
يَا وَاسِعَ الْمَعْرُوفِ ذَا النَّعْمَاءِ  
فِي كُلِّ رَشْحِ الْقَلْمِ وَالْإِمْلَاءِ  
ذَهَبَ الْبَلَاءُ فَمَا أَحْسَنُ بِلَائِي  
لَمَا أَتَانِي طَالِبُ الْتَّلْبَاءِ

يَا مَنْ أَحْاطَ الْخَلْقَ بِالْآلَاءِ  
أَنْظُرْ إِلَيْ بِرْحَمَةٍ وَعَطْوَفَةٍ  
أَنْتَ الْمَلَادُ وَأَنْتَ كَهْفُ نَفْوسِنَا  
إِنَّا رَأَيْنَا فِي الظَّلَامِ مَصِيَّبَةً  
تَعْفُوُ عَنِ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ بِتَوْبَةٍ  
أَنْتَ الْمَرَادُ وَأَنْتَ مَطْلُبُ مُهْجِي  
أَعْطَيْتَنِي كَأْسَ الْمَحْبَةِ رِيقَهَا  
إِنِّي أَمُوتُ وَلَا يَمُوتُ مَحْبِي  
مَا شَاهَدْتُ عَيْنِي كَمِثْلِكَ مُحْسِنَا  
أَنْتَ الَّذِي قَدْ كَانَ مَقْصِدُ مُهْجِي  
لَمَّا رَأَيْتُ كَمَالَ لَطْفِكَ وَالنَّدَا  
إِنِّي تَرَكْتُ النَّفْسَ مَعَ جَذْبَاهَا

بُعْدٌ جنائزُنا من الأحياء  
 كادت تعُفِّيني سيلُ بكائي  
 لسنا بِمِبْتَاعِ الدُّجَى بِبَرَاءٍ  
 فَأَنْخَتُ عَنْدَ مُنْوَرِي وَجْنَائِي  
 أَسْلَمْتُهَا كَالْمِيَّتِ فِي الْبَيَادِ  
 فَرَأَيْتُ بَعْدَ الْمَوْتِ عَيْنَ بَقَائِي  
 فوْجَدْتُهَا فِي فُرْقَةٍ وَصَلَاءٍ  
 كَانَتْ رُجْاجَتِنَا بِغَيْرِ صَفَاءٍ  
 فِي النِّشَاءِ الْأُخْرَى وَفِي الْإِبَادِ  
 لَوْلَا الْعُنَيَاةِ كُنْتُ كَالسَّفَهَاءِ  
 فَحَضَرْتُ حَمَالًا كَثُوْسَ شَفَاءِ  
 حِبٌ فِدَّتِهِ النَّفْسُ كُلَّ فِدَاءِ  
 وَلَهُ عَلَاءُ فَوْقَ كُلِّ عَلَاءِ  
 وَاسْتِقْ بِيذِلِ النَّفْسِ وَالْإِعْدَاءِ  
 وَلَهُ التَّقْدِسُ وَالْعُلَى بِغَنَاءِ  
 حَتَّى رَمِيتُ النَّفْسَ بِالْإِلْغَاءِ  
 وَأَرَى التَّعْشُقَ لَاهَ فِي سِيمَائِي  
 غَمَرْتُ أَيْدِي اللَّهِ وَجْهَ رَجَائِي

مَتَّنَا بِمَوْتٍ لَا يَرَاهُ عَدُوْنَا  
 لَوْلَا مَيْكُنْ رَحْمُ الْمَهِيمِنَ كَافَلِي  
 نَتَلُو ضَيَاءَ الْحَقِّ عِنْدَ وَضُوْحِهِ  
 نَفْسِي نَأَتْ عَنْ كُلِّ مَا هُوَ مُظْلِمٌ  
 لَمَا رَأَيْتُ النَّفْسَ سَدَّ مَحَاجِي  
 إِنِّي شَرِبْتُ كَثُوْسَ مَوْتِ الْهُدَى  
 فُقِدَّتْ مَرَادَاتِي بِزَمِنِ لَذَادَةِ  
 لَوْلَا مِنَ الرَّحْمَنِ مَصْبَاحُ الْهُدَى  
 إِنِّي أَرَى فَضْلَ الْكَرِيمِ أَحَاطَنِي  
 اللَّهُ أَعْطَانِي حَدَائِقَ عِلْمِهِ  
 وَقَدْ اقْتَضَتْ زَفَرَاتُ مَرْضَى مَقْدَمِي  
 اللَّهُ خَلَقَنِي وَمُهْجَّةُ مُهْجِي  
 وَلَهُ التَّفَرُّدُ فِي الْمَحَامِدِ كُلُّهَا  
 فَلَمَّا حَضَرْتُ لَهُ إِنْ كُنْتَ تَعْرِفُ قَدْرَهُ  
 مَلْكُوْتُهُ تَبَقَّى بِقُوَّةِ ذَاتِهِ  
 غَلَبْتُ عَلَى قَلْبِي مَحْبَّةُ وَجْهِهِ  
 وَأَرَى الْوَدَادَ أَنَارَ بَاطِنَ بَاطِنِي  
 مَا بَقِيَ فِي قَلْبِي سَوَاهُ تَصْوُرُّ

هَوْجَاءُ الْفِتَهِ أَثَارَتْ حُرَّتِي  
 فَدَى جَنَانِي صَوْلَةَ الْهَوْجَاءِ  
 وَاللَّهُ كَافِلٌ وَنَعْمَ الرَّاعِي  
 وَأَثَرْتُ نَقْعَ الْمَوْتِ فِي الْأَعْدَاءِ  
 رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَخَالِقُ الْعَبْرَاءِ  
 وَبِكُلِّ مَا أَخْبَرْتَ مِنْ أَنْبَاءِ  
 يَا كَهْفِيَ اعْصِمْنِي مِنَ الشُّعَبَاءِ  
 مِنْ يَدُسُّ الدِّينَ تَحْتَ عَفَاءِ  
 وَتَهَالِكُوا فِي بَخْلِهِمْ وَرِيَاءِ  
 نَحْسُ الْمَقَاصِدِ مُظْلِمُ الْأَرَاءِ  
 فِي نَائِبَاتِ الدَّهْرِ وَالْهَيَّاءِ  
 يُؤْذُنُنِي بِتَحْبُّبٍ وَمُوَاءِ  
 ذُو الْفَضْلِ يَحْسُدُهُ ذُوو الْأَهْوَاءِ  
 لِمَقَالَةِ ابْنِ بَطَالَةِ وَشَاءِ  
 مَا زَادَنِي إِلَّا مَقَامَ سَنَاءِ  
 مَا بَقِيَ إِلَّا لِبْسَةُ الْإِغْوَاءِ  
 أَوْ أَنْفَأَ زَاغْتُ بِفَرْطِ مِرَاءِ  
 مَوْجٌ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي الْعُلُوَاءِ  
 أَعْرَى بِوَاطِنَهُمْ لِبَاسُ عُوَاءِ

أَبْرِي الْهَمُومَ بِمَشْرَفَيْهِ فَضَلَّهِ  
 مَا شَمَّ أَنْفِي مَرْغَمًا فِي مَشْهَدِ  
 يَا رَبَّ آمَنَّا بِأَنْكَ وَاحِدُ  
 آمَنْتُ بِالْكِتَبِ الَّتِي أَنْزَلْتَهَا  
 يَا مَلْجَائِي أَدْرِكْ إِنَّكَ مَوْئِلِي  
 يَا رَبَّ أَيَّدْنِي بِفَضْلِكَ وَانْتَقِمْ  
 لَا يَعْلَمُونَ نَكَاتَ دِينِ الْمُصْطَفَى  
 يُؤْذُنُنِي قَوْمٌ أَضَاعُوا دِينَهُمْ  
 خَشُّوا وَلَا يَخْشَى الرَّجَالُ شَجَاعَةً  
 زَمَعُ الْأَنْاسِ يُحَمِّلُقُونَ كَثْلَبَ  
 حَسَدُوا فَسَبُّوا حَاسِدِينَ وَلَمْ يَزَلُ  
 صَالُوا بِإِبَادَاءِ النَّوَاجِذِ كَالْعِدَا  
 إِنَّ اللَّئَامَ يَكْفُرُونَ وَذَمْهُمْ  
 نَضَّوا الثِّيَابَ ثِيَابَ تَقْوَى كُلُّهُمْ  
 مَا إِنْ أَرَى غَيْرَ الْعَمَائِمَ وَاللَّحَى  
 وَأَرَى تَغْيِيظَهُمْ يَفُورُ كُلُّجَّةٍ  
 كَلِمُ اللَّئَامَ أَسِنَةً مَذْرُوبَةً

مولايَ خَتَمَ الرَّسُولُ أَهْلَ رَبَّاءِ  
 جَهَنَّمَ مَظْلومِينَ مِنْ جُهْلَاءِ  
 إِنَّا نُحِبُّكَ يَا ذُكَاءَ سُخَاءِ  
 أَنْتَ الَّذِي قَدْ جَاءَ لِإِلْحَيَاءِ  
 وَتَخْيِيرِ الْمَوْلَى عَلَى الْحَوْبَاءِ  
 يَسْعَى إِلَيْكَ الْخَلْقُ لِلْإِرْكَاءِ  
 تَهْوِي إِلَيْكَ قُلُوبُ أَهْلِ صَفَاءِ  
 نُورَتَ وَجْهَ الْمُدْنَ وَالْبَيَادَاءِ  
 شَأْنًا يَفْوَقُ شَؤُونَ وَجْهِ ذُكَاءِ  
 قَدْ جَئْتَ مِثْلَ الْمُزْنِ فِي الرَّمَضَاءِ  
 وَجْهُ كَبِدِ اللَّيْلَةِ الْبَلْمَاءِ  
 عَيْنُ النَّدِي نَبَعَتْ لَنَا بَحْرَاءِ  
 إِذَا رَأَيْتُ فَهَا جَ مَنْهُ بَكَائِي  
 نَبَنِي مَنَازِلَنَا عَلَى الْجَوْزَاءِ  
 لَسَنَا كَرَجْلٍ فَاقِدٌ الْأَعْضَاءِ  
 لَنَرُدَّ إِيمَانًا إِلَى الصَّيَادَاءِ  
 رَأْسَ الْئَامَ وَهَامَةَ الْأَعْدَاءِ  
 حَفَّدُوا إِلَيْهِ بَشَدَّةٍ وَرَخَاءِ

مَنْ مُخْبِرٌ عَنْ ذَلِّي وَمَصْبِيَّيِ  
 يَا طَيِّبَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَسْمَاءِ  
 إِنَّ الْحَبَّةَ لَا تُضَاعُ وَتُشْتَرَى  
 أَنْتَ الَّذِي جَمَعَ الْمَحَاسِنَ كُلَّهَا  
 أَنْتَ الَّذِي تَرَكَ الْهَدْوَنَ لِرَبِّهِ  
 يَا كَكْرَزَ نَعَمِ اللَّهُ وَالْأَلَاءِ  
 يَا بَدْرَ نُورِ اللَّهِ وَالْعِرْفَانِ  
 يَا شَمَسَنَا يَا مِبْدَأَ الْأَنْوَارِ  
 إِنِّي أَرَى فِي وَجْهِكَ الْمَتَهَلَّلِ  
 مَا جَعَنَّنَا فِي غَيْرِ وَقْتٍ ضَرُورَةِ  
 إِنِّي رَأَيْتُ الْوَجْهَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ  
 شَمْسُ الْهَدِي طَلَعَتْ لَنَا مِنْ مَكَّةَ  
 ضَاهَتْ أَيَّاً الشَّمْسُ بَعْضَ ضَيَائِهِ  
 أَعْلَى الْمَهِيمِنُ هِمَمَنَا فِي دِينِهِ  
 نَسَعَى كَفِتِيَانٍ بَدِينِ مُحَمَّدٍ  
 نَلْنَا ثُرِيَّاءَ السَّمَاءِ وَسَمْكَهُ  
 إِنَا جَعَلْنَا كَالْسِيُوفَ فَنَدَمَغُ  
 وَاهًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ وَجَنْدِهِ

في النور بعد تمرُّقِ الأهواءِ  
حضروا جنابَ إمامنا لِفداءِ  
تحت السيف أُريقَ كالأطلاعِ  
فتَخَيِّرُوا للهِ كُلَّ عناءِ  
عَذْبُ الْمَوَارِدِ مثمر الشجراءِ  
قُطِّعوا من الآباءِ والأبناءِ  
حتَّى رضُوا بِمَصَائِبِ الإجلاءِ  
وَتَبَاعِدُوا مِنْ صَحْبَةِ الرُّفَقاءِ  
وَجَدُوا السَّنَّا فِي اللَّيَلَةِ الْلَّيَلَاءِ  
أُعْطَى جَوَاهِرَ حُكْمَةٍ وَضِياءِ  
مَاتُوا لَهُ بِصَدَاقَةٍ وَصَفَاءِ  
لِرِضا الْمَهِينِ نَحْبُمْ بِوَفَاءِ  
جَوَرَ الْعَدَا وَبَوَائِقَ الْهِيجَاءِ  
بِحَبَّةٍ وَإِطْاعَةٍ وَرَضَاءِ  
لِأَرِي الْخَلَائِقَ بِحَرَّهَا كَمَاءِ  
كَالْطَّيْرِ إِذْ يَأْوِي إِلَى الدَّفَوَاءِ  
وَتَسْبُبُ وَجْهَ الْمُصْطَفَى بِجَفَاءِ  
إِنْ لَمْ أَشْنَّ عَلَيْكَ يَا ابْنَ بَعَاءِ

غُمْسوا بِرَكَاتِ النَّبِيِّ وَفِي ضِيَّهِ  
قاموا يَأْقُدُّونَ الرَّسُولَ بِغُزْوَهِ  
فَدُمُّ الرِّجَالِ لِصَدْقَتِهِمْ فِي حُبِّهِمْ  
بَلَغَ الْقُلُوبُ إِلَى الْخَاجِرِ كُرْبَيْهِ  
دَخَلُوا حَدِيقَةَ مَلَّةٍ غَرَّاءِ  
وَفَنُوا بِحُبِّ الْمُصْطَفَى فِي فَحْبَبِهِ  
قَبِيلُوا لِدِينِ اللَّهِ كُلَّ مَصِيَّبَةٍ  
قَدْ آثَرُوا وِجْهَ النَّبِيِّ وَنُورَهُ  
فِي وَقْتٍ ظَلَمَاتِ الْمَفَاسِدِ نُورُوا  
نَهَبُ الْلَّيَامُ نُشَوَّبَهُمْ فَمَلِيكُهُمْ  
وَاهَا لَهُمْ قُتَلُوا لِعَزَّةِ رَبِّهِمْ  
شَهَدُوا الْمَعَارِكَ كُلُّهَا حَتَّى قَضَوْا  
مَا فَارَقُوا سُبُلَ الْهُدَى وَتَخْيِرَوا  
هَذَا رَسُولٌ قَدْ أَتَيْنَا بَابَهُ  
يَا لَيْتَ شُقَّ جَنَانِيَ الْمَتَمَوِّجُ  
إِنَا قَصَدْنَا ظِلَّهُ بِهِ وَأَجِرٍ  
يَا مَنْ يَكْذِبُ دِينَنَا وَنَبِيَّنَا  
وَاللَّهُ لَسْتُ يَبَسِّلُ يَوْمَ الْوَعْيَ

وَمَلَاهَةٌ فِي مُقْلِهِ كَحْلَاءِ  
بَدْرٌ مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ بِفَضْلِهِ  
إِنَا نَشَاهِدُ حَسَنَهُ وَجْهَهُ  
لَا يَسِيرُ الْكُفَّارُ نُورُ حَمَالِهِ  
لَا يَسِيرُ الْكُفَّارُ نُورُ حَمَالِهِ  
إِنَّا بُرَاءٌ فِي مَنَاهِجِ دِينِهِ  
نَخْتَارُ آثَارَ النَّبِيِّ وَأَمْرِهِ  
يَا مُكْفِرِي إِنَّ الْعَوْاقِبَ لِتُثْقَى  
إِنِّي أَرَاكُ تَمِيسُ بِالْخَيَالِ  
ثُبُّ أَيْهَا الْغَالِي وَتَأْتِي سَاعَةً  
أَفَتَضِرُّ بِنَّ عَلَى الصَّفَاهَ زَجَاجَةً  
غَرَّثَكَ أَقْوَالُ بَغْيَرِ بَصِيرَةٍ  
إِنَّ السُّمُومَ لَشَرُّ مَا فِي الْعَالَمِ  
جَاوَزَتِ بِالْتَّكْفِيرِ عِرَصَاتِ التُّقَى  
تَأْتِيكَ آيَاتِي فَتَعْرِفُ وَجْهَهَا  
إِنَّ الْمَقْرَبَ لَا يَضَعُ بَفْتَنَةً  
يَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا بِكَرَامَةٍ  
يَا مَنْ أَرَى أَبْوَابَهُ مَفْتُوحةً

يَا مَنْ أَرَى أَبْوَابَهُ مَفْتُوحةً

لِلْسَّائِلِينَ فَلَا تُرُدُّ دُعَائِي

يَا مَنْ يَرِى قَلْبِي وَلُبُّ لِحَائِي

وَالْأَجْرُ يُكَتَّبُ عِنْدَ كُلِّ بَلَاءِ

فَاصْبِرْ وَلَا تَتَرُكُ طَرِيقَ حَيَاءِ

أَشْقَقْتَ قَلْبِي أَوْ رَأَيْتَ خَفَائِي

وَمِنَ السُّمُومِ غَوَائِلُ الْأَرَاءِ

ثُمَّسِي تُعْضِّ يَمِينَكَ الشَّلَاءِ

هَوْنَ عَلَيْكَ وَلَا تَمُتْ بِإِبَاءِ

أَنْسِيَتَ يَوْمَ الظَّعْنِ وَالْإِسْرَاءِ

نَقْفُو كِتَابَ اللَّهِ لَا الْأَرَاءِ

فَانْظُرْ مَآلَ الْأَمْرِ كَالْعُقَلَاءِ

مِنْ كُلِّ زَنْدِيَّ عَدُوُّ دَهَاءِ

وَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةِ غَشَاءِ

وَالْبَدْرُ لَا يَغْسُو بَلْغَيِ ضِرَاءِ

وَمَلَاهَةٌ فِي مُقْلِهِ كَحْلَاءِ



## المقدمة

### في ذكرِ

# أسباب تأليف الكتاب وبيان ما علمنا من الله الوهاب

اعلم، حفظك الله القيوم، وأيده في خيرٍ تروم، أن هذا الزمان هو الزمان الظلوم، كأنه اليوم المسموم، أو البلاد الجرائم، ضاعت فيه المعرفة والعلوم، وشاعت البدعاتُ والرسوم، وخلصتُ للدنيا الهممُ والهموم، وحمئتُ بئارُ الطبائعِ ونُرَحَ الجحوم، وحسبوا الزَّقُوم كأنه الزَّقُوم<sup>♦</sup>، وقلَّ المؤمنون وكثُرَ اللئامُ الخصوم، وجعلوا المسيح إلهاً وقد رأوا أنه المسكين الجحوم، وكذلك جاءت الأيام الحسوم، فنشكو إلى الله رب العالمين.

والذي نور الشهبَ، وأزجى للمطر السحبَ، وخلق السماواتِ طباقاً، وطبقها إشراقاً، إن الظلماتِ كثرتُ في هذا الزمان، وحلَّت في جذرِ قلوب الرجال والنسوان، ومالتِ الطبائع إلى الضيم والزور،

---

♦ الرَّقُومُ الأوَّلُ هو شجر في الجحيم منها طعامُ الأثيم، والرَّقُومُ الثَّانِي هو الزَّبَدُ بالتمر. (المجنحة)

واختارَتْ سُبُلَ الفسق والفحور، وترَكَ النَّاسُ طرقَ الديانة والأمانة، ورضوا بأنواعَ الفِرْيَة والخيانة، وقلَّبوا أمورَ الدين. يَتَخَذُونَ الجِدَّ عَبَثاً، ويَحْسِبُونَ التَّبَرَ خَبَثاً، وَلَا يَمْشُونَ إِلَّا زَاغِينَ. سُبُلَّ مِنْهُمُ الْفَهْمُ الَّذِي يَصْلُقُ الْخَوَاطِرَ، وَيَدْرِي الْجَهَامَ وَالْمَاطِرَ، فَبَرَزُوا كَالْأَنْعَامِ رَاتِعِينَ. لَا يَعْرِفُونَ الزَّمَانَ وَالْوَقْتَ الَّذِي قَدْ حَانَ، وَلَا يَسْلُكُونَ مَسْلِكَ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ، وَلَا يَسْتَقْرُرُونَ مَفْتَاحَ الْطَّرِيقَةِ، وَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ مَنْصِفِينَ، وَلَا يَسْتَوْكِفُونَ صَيْبَ الْفَيْضَانِ، وَيَتَهَوَّنُونَ فِي مَوْمَاهَ الْخَسْرَانِ كَالْعَمِينِ. يَؤْذُونَ بِجِدَّةِ الْكَلْمَاتِ وَلَا كَحْدَّ الْظُّبَاءِ، وَلَا يُيَالُونَ مَكَانَةَ الصَّادِقِينَ. وَإِذَا قَيْلَ لَهُمْ لَا تَفْسِدُوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاهْتَدُوا، قَالُوا إِنَّا نَحْنُ أُولَئِكَ الْمُصْلِحُونَ. فَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ، وَلَا يَتَرَكُونَ الْفَسَادَ وَيَزُورُونَ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَسَاقَهُمْ سُمَّ ذُنُوبِهِمْ، فَمَا وُفِّقُوا وَصَارُوا مِنَ الْمَهَالِكِينَ. وَقَدْ نُصِّحُوا فَأَكَدَّ الْنَّصِيحَةُ، وَوُعِظُوا فَمَا نَفَعَ الْمَوْعِظَةُ، وَمَا أَرَوَا إِلَّا عَنَادِاً، وَمَا زَادُوا إِلَّا فَسَادِاً، وَتَرَاهُمْ يَعْثُونَ فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ. نَسْلُو مِنْ كُلِّ حَدَبٍ، وَصَارُوا سَبَبَ كُلِّ نَدَبٍ، وَسَارُوا عَلَى نَحْبِ صَائِدِينَ. وَأَشَاعُوا الْفَسقَ وَالْفَحْوَرَ، وَالْكَذْبَ وَالْزُّورَ، بِمَا كَانُوا فَاسِقِينَ. فَلَذِلِكَ تَرَى أَنَّ الْأَمَانَةَ قُلْتَ، وَالْخَيَانَةَ كَثُرْتَ، وَالْوَقَاحَةَ أَفْطَعْتَ، وَالضَّالَّةَ ضَبَأْتَ، وَكَلْبَةَ الْفَسَقِ أَجْعَلْتَ، وَبَغْيَّ الشَّرَّ نُسْئَتَ، وَحَامِلُ الْمَوَاعِظِ أَيْتَتَ، وَهِجَانُ الْمُهْجَرِ

سُمِّنْتُ، وَعُسْبِرَةُ الْحَقِّ عُبِطْتُ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهَا عَيْنُ وَمَا ذَرْفَتْ، بَلْ  
 دَابَّةُ الْبَاطِلِ سُرْحَتْ، فَرَعَتْ حِمَى الْحَقِّ حَتَّى تَضَلَّعَتْ، فَمَا مَنَعَهَا  
 أَحَدٌ بَلْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ وُثِّتَتْ، وَسَيِّفُ الْعَدَا انْطَلَقَتْ، فَأَخْدَى  
 الْأَحْرَارِ وَلَحْوُهُمْ سُفَّدَتْ، ثُمَّ نُدِئَتْ، ثُمَّ خُضِّمَتْ وَقُضِّمَتْ، وَالْقِيَامَةُ  
 قَامَتْ، وَهُوَجَاءُ الْفَتَنِ اشْتَدَّتْ، وَسَيْلُ الشَّرُورِ غَلَبَتْ، وَانْكَسَرَ  
 السُّكْرُ وَالْمَصِبَّيَةُ جَلَّتْ، وَنَزَّلَتِ النَّوَازِلُ وَجَبَّاتُ، وَأَرَضُ التَّقْوَى  
 بُرِدَتْ، وَسَمَاءُ الصَّلَاحِ تَغَيَّمَتْ، وَالْمَعْصِيَةُ امْتَدَّتْ وَلِيَلُّهَا جَثَّمَتْ،  
 وَالْذَّنَوْبُ أَغَارَتْ وَصَالَتْ، حَتَّى جَنَّبَتِ الصَّلَاحَ وَأَسْعَطَتْ، وَالنُّفُوسُ  
 نَدَّتْ، وَعَيْنُ الْإِنْصَافِ رُمِدَتْ، وَقَرْوَحُ الْخَبْثِ تَذَيَّأَتْ، وَكُلُّ سَلِيلَةٍ  
 هَرَأَتْ، وَالْفَتَنَةُ تَفَاقَمَتْ، وَسِهَامُهَا مِنْ كُلِّ جَهَةٍ مَطَرَتْ، وَالْخَبَاثَةُ  
 تَرْوِجَتْ، فَحَمَلَتْ وَكَمِّلَهَا أَجْزَاءُ، فَجَاهَيَّاًهَا الْمَتَرَبَّةُ وَتَوَارَدَتْ،  
 وَالْبَلَادُ خَرِبَتْ، وَرِهَامُ الْمَصَابِ تَصَوَّبَتْ، فَمَا نَجَّتْ نَفْسٌ أَيْمَنَتْ أَوْ  
 أَشَأَمَتْ أَوْ عَرَضَتْ، وَمَا عُصِّمَتْ مِنْ الْفَقْرِ وَإِنْ طَهْفَلَتْ، وَمَا تَرَكَهَا  
 الْعَدَا وَإِنْ بَأْبَأَتْ. وَكَمْ مِنْ نَفْسٍ ارْتَدَّتْ بَعْدَمَا هَلَّهَلَتْ، وَكَفَرَتْ  
 بَعْدَمَا آمَنَتْ وَحَمَدَلَتْ. فَرَأَيْنَا فِي هَذِهِ الْلَّيْلَةِ الْلَّيْلَاءِ مَا عَرَفَنَا جَهَدَ  
 الْبَلَاءِ، وَقَصَصْنَا قِصَصَ الْأَعْدَاءِ، مُسْتَرْجِعِينَ مُحَوِّلِينَ.  
 وَالَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّا نَحْنُ عُلَمَاءُ إِلَيْسَامٍ وَفُحُولٌ مَلَّةُ خَيْرِ الْأَنَامِ،  
 فَتَرَاهُمُ الْكَسَالَى الْأَكْلِينَ كَالْأَنْعَامِ، لَا يَنْصُرُونَ الْحَقَّ بِالْأَقْوَالِ

والأقلام، إلا قليل من عباد الله ذي الإكرام، وترى أكثرهم في حقد أهل الحق كاللثام. ما يجيئهم حق إلا يستعيرون بينهم الاصطخاب، ولا يدرؤن ما الحق والصواب. لا يمتنعون من الفتنة، ويُلْبِسُون الحق بغوائل الزخرفة، ليَفْتَنُوا مِن إِزْرَائِهِمْ قوماً جاهلين. والذِي أقامَهُ الله لِإِصْلَاحِ النَّاسِ يَحْسِبُونَهُ كَالْخَنَّاسِ، وَيُكَفِّرُونَ الْمُؤْمِنِينَ. لا تَنْقُلُ خطوَاتِهِمْ إِلَى التَّزْوِيرِ، وَلَا تَمْيِلُ أَسْنَاهُمْ إِلَى التَّكْفِيرِ، وَلَا يَعْلَمُونَ مَا خَدْمَةُ الدِّينِ، لَبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَكَذَلِكَ عَبَطُوا عَلَيْنَا الْكَذَبَ مَتَعَمِّدِينَ. فَهَذَا أَعْظَمُ الْمَصَائِبِ عَلَى دِينِ خَيْرِ الْبَرِّيَّةِ.. أَنَّ الْعُلَمَاءَ خَرَجُوا مِنَ التَّدِيَّنِ وَالْأَمَانَةِ، وَفَعَلُوا أَفْعَالَ أَعْدَاءِ الْمَلَّةِ، وَأَجْنَوُرُوا عَلَى الْكَذَبِ وَالْفَرِّيَّةِ، لِيَحْفَظُوهَا مِنْ صُولَ الْحَقِّ وَالْحَكْمَةِ، وَلَا يَبِلُّونَ دَيَّانَةَ ذَا الْعَظَمَةِ، وَيَنْصُرُونَ الْكَفَرَةَ كَالْمَعَانِدِينَ. وَاحْتَكَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ أَنْهُمْ عَلَى الصَّوَابِ، وَمَا يَسْلِكُونَ إِلَّا مَسْلِكُ التَّبَابِ، وَلَا يَعْلَمُونَ إِلَّا الْأَمَانِيَّ، وَلَا يَتَغَوَّلُونَ الْمَعَانِي، وَمَا كَانُوا مَعِنِينَ. يَسْمَعُونَ الْحَقَّ فَيَأْبُونَ، كَأَنَّهُمْ إِلَى الْمَوْتِ يُدْعَوْنَ، وَيَرَوْنَ أَنَّ الدِّينَ غَدُورَ، وَالدَّهْرَ عَثَورَ، ثُمَّ يُكَبِّرُونَ عَلَيْهَا كَالْعَاشِقِينَ. وَلَهُمْ عَمَلٌ يَعْمَلُونَ فِي الدَّارِ، وَعَمَلٌ آخَرٌ لِلْأَنْظَارِ، فَوَيْلٌ لِلْمُرَائِينَ. وَقَدْ رَأَوْا فَسَادَ الْكُفَّارِ، وَعَلِمُوا أَنَّ الدِّينَ صَارَ غَرْضَ الْأَشْرَارِ، وَدِيسَ الْحَقِّ تَحْتَ أَرْجُلِ الْفُجَّارِ، ثُمَّ يُنُومُونَ نَوْمَ الْغَافِلِينَ، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى مَوَاسِيَةِ الدِّينِ.

يسمعون كل صيحة مؤذية، ثم لا يبالون قولَ كَفَرَةٍ فَجَرَةٍ، ولا يقومون كذبي غَيْرَة، بل يُثْقِلُونَ كَالْجُبَالِيَّ، وما هم بجبارٍ، وإذا قاموا إلى خير قاموا كُسالٍ، وما تجد فيهم صفةَ الْجَاهِدِينَ، وإذا رأوا حظَ أنفسهم فترأهُم يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ واثبِينَ.

هذا حال علمائنا الكرام، وأما الْكُفَّارُ فِي جَاهِدِهِنَّ لِإِطْفَاءِ الإِسْلَامِ، وما كان نجواهم إلا لهذا المرام، وما كانوا مُنْتَهِينَ. حَرَّفُوا كِتَبًا وأَخْبَارًا، وَمَكَرُوا مَكْرَارًا كُبَارًا، وزَوَّرُوا أَطْوَارًا، وَأَهْلَكُوا خَلْقًا كَثِيرًا من الْجَاهِلِينَ. قَتَلُوا زُمْرًا كَثِيرًا، وَأَبْدَأُوا مَكْيَدَةَ كَبِيرَةَ، فَمَا نَبَأَ سِيفُهُمْ نَبْوَةً، وَوَرَدُوا الْدِيَارَ مَتْبُوئِينَ. وَمَا تَرَكُوا دِقَيْقَةَ الْفَسَادِ، وَجَهَرُوا بِالذَّهْلِ مِنَ الْعَنَادِ، وَقَلَّبُوا أَمْرَوْهُمُ الْحَقُّ وَالسَّدَادُ، وَصَافَّوْهُ الشَّيْطَانُ مُثَانِفِينَ، وَمَا نَكَبُوا عَنْهُمْ بُعْضَ الصَّادِقِينَ، بل نجَدَ كُلَّ فَرِيدٍ ذَا حَنْقٍ، وَمُصْرِّاً عَلَى نَحْسٍ وَرَهْقٍ، وَمَا نَجَدُهُمْ إِلَّا مُفْتَرِينَ. لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا الْأَكْلُ وَالنَّيْكُ، وَلَا يَؤْثِرُونَ إِلَّا الْزِينَةَ وَالصَّيْكَ، وَلَا يَمْشُونَ إِلَّا مُسْتَكْبِرِينَ. فَحَمَلْنَا بَمْ أَنْوَاعَ الْأَهْمَالِ، لَوْ حُمِّلَتْ مَثْلَهَا رَاسِخَاتُ الْجَبَالِ، لَخَرَّتْ وَانْهَدَّتْ فِي الْحَالِ، وَنَاءَ بِهَا بَأْسُ الْأَتْقَالِ، وَسَقَطَتْ كَالسَّاجِدِينَ، وَلَكَنَّا كَنَّا مَحْفُوظِينَ.

وَكَانَ قَلْبِي يَقْلُقُ، وَكَادَتْ نَفْسِي تَرْهَقُ، لَوْ لَمْ يَكُنْ مَعِي قَوِيٌّ مُتِينٌ. وَإِنَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لِلْكَافِرِينَ. وَإِنَّهُ يَجِيبُ دُعَاءِنَا وَيَسْمَعُ

بكاءنا، ويأتنا إذا أتيناه مضطرين. وكذلك إذا خوّفني هجوم الآفات، وأرعدني ضعف المسلمين والمسلمات، فبكيتُ في وقت من الأوقات، ودعوتُ ربِّي قاضي الحاجات، وناديتُ مولاي كالمتضرّعين، وقلتُ يا رب أنت ملجأنا في كل حين، ونحن إليك نشكو وأنت أحكم الحاكمين، فلا تؤاخذنا إِنْ نسينا أو أخطأنا، ولا تحملْ علينا إِصرًا كما حملتَه على الذين من قبلنا، ولا تُحمّلنا ما لا طاقة لنا به، واعفْ عَنّا، واغفرْ لَنَا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين. فاستحباب لي ربِّي وأعطاني إِربِّي، ونصرني وهو خير الناصرين.

فكنتُ يوماً أتذكر قلّة الْبَعَاع، وأرتعد كاللّاع، وأفلقُ في هذه الأحزان، وأقرأ آياتِ القرآن، وأفكّر فيها بجهد الجhan، وأُزجي نصوّ التدبر والإيمان، وأدعو الله أن يهديني طرق العرفان، ويتّم حجّي على أهل العداون، ويتلافي ما سلفَ مِن جحور المعتدين. فبينما أنا أفتّش كالكميش، وقد حمّي وطيسُ التفتيش، وأنظر بعض الآيات، وأتوسّم فحواءَ البينات، إذا تلأّلتْ أمّا عيني آيةٌ من آيات الفرقان، ولا كتالؤُ دُرَّ العُمان، فإذا فكرتُ في فحوائها، واتّبعْ أنواع ضيائها، وأجزتُ حمَّي أرجائها، وأفضيَتُ إلى فضائها، وجدتها خزينةً من خزائن العلوم، ودفينة من السرّ المكتوم، فهَرَّتْ عطفي

رؤيتها، وتحلتْ لي كجمرةٍ قوتها، وأصيَّ قلبيُّ نصارها ونصرتها،  
واغتالت العدا كريهتها، وسرتْ مهْجتيُّ صرّتها، فحمدلتُ وشكرتُ  
الله رب العالمين. ورأيت بها ما يملا العين قرّة، ويعطي من المعرف  
دولَة، ويُسر قلوبَ المسلمين. وعلّمتُ مِن سرِّ اللغاتِ ومثواها،  
وزُودتُ مِن فصِّ الكلماتِ وبنوها، وكذاكُ أعطيتُ مِن أسرارِ عليا  
ونكَاتِ عظمى، ليزيد يقيني ربِّ الأعلى، ولقطع دابرَ المعذين.  
وإن كنتَ تحبَّ أن تعرف الآية وصوْلها، فاقرأْ ﴿لَتَنذِرَ أُمَّ الْقُرَى  
وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وإنَّ فيها مدحَ القرآنِ وعربيٌّ مبينٌ. فتدبرُها  
كالعاقلين، ولا تمرَّ بها مرور الغافلين.

واعلم أن هذه الآية تُعظّم القرآنَ والعربيةَ ومكَّةَ، وفيها نورٌ مزَّقَ  
الأعداء وبَكَّتَ، فاقرأْها بِتمامها، وانظرْ إلى نظامها، وفتشْ  
كالمستصرِّين. وإن تدبرْها فوجدتُ فيها أسراراً، ثمَّ أمعنتُ فرأيتُ  
أنواراً، ثمَّ عمّقتُ فشاهدتُ مُنْزَلاً قهاراً ربَّ العالمين. وكُشِّفَ عليَّ  
أن الآية الموصوفة والإشاراتُ الملفوفة، تهدي إلى فضائلِ العربيةِ  
وتشير إلى أنها أُمُّ الألسنة، وأن القرآنَ أُمُّ الكتبِ السابقة، وأن مكَّةَ  
أُمُّ الأرضين. فاقتادني بُرُوقُ هذه الآية إلى أنواعِ التنفسِ والدريةِ،  
وفهمتُ سيرَ نزولِ القرآنِ في هذا اللسانِ، وسِرَّ ختمِ النبوةِ على خيرِ

البرية وختم المرسلين. ثم ظهرت على آيات أخرى، وأيد بعضها بعضاً تتراءاً، حتى جرّي ربى إلى حق اليقين، وأدخلني في المستيقن، وظهر على أن القرآن هو أم الكتب الأولى، والعربىة أم الألسنة من الله الأعلى، وأما الباقية من اللغات فهي لها كالبنين أو البنات، ولا شك أنها كمثل ولديها أو ولائدها، وكل يأكل مِنْ عشراتها وموائدها، وكل يجتنون فاكهة هذه اللهجة، ويماؤن البطون بتلك المائدة، ويسربون من تلك اللُّجَّة، ويتخذون لباساً من هذه الحلة، فهي مُرْبِّيةٌ أعارَها الدَّسْتَ، واختار لنفسها الدَّسْتَ.

وأما اختلاف الألسنة في صور التركيب فليس من العجيب، وكذلك الاختلاف في التصريف واطراد المواد ليس من دلائل عدم الاتحاد، ولو لا اختلاف بهذا القدر في التراكيب، لامتنع تغايرُ يجب كثرة اللغات، فإن وجود التراكيب المختلفة هو الذي غير صور الألسنة، وهو السبب الأول للتفرقة. فلا يسوغ لمعترض أن يتكلم بمثل هذه الكلمات، وأين منتداهُ هذه الاعتراضات، فإنها مُصادرة ومن المنوعات. وكفاك أن الألسنة كلها مشتركة في كثير من المفردات، وما أوغلتُ بل سأريك كأجلى البديهيات، فاستقيم كما سمعت ولا تكن من المخطفين.

وإني لما وجدت الدلائل من الفرقان، واطمأن قلبي بكتاب الله الرحمن، أردت أن أطلب الشهادة من الآثار، فإذا فيها كثير من الأسرار، ففرحت بها فرحة النشوان بالطلاء، ووجدت وَجْدَ الشَّمِيلِ بالصهباء، وشكّرت الله نصير الصادقين. ثم بدء لي أن أثبّت هذا الأمر بالدلائل العقلية، لأنّم الحجة على كل جمْوح شديد الخصومة، وأبْكَتَ قوماً مرتابين. فلم تزل الأشواق تهيج فكري، وتجيل في عرصاتها حِجْري، حتى فُتحتْ علىّ أبواب الاستدلال، ووُقْفتْ لإمراضِ زعمِ أهل الضلال وقوم ضالين. ووالله ما عانى بالي في هذا السبيل، وما أخرجت شيئاً من الزّبَيلِ، وما فارقتْ كأس الكَرى، وما نصّصتْ ركابَ السُّرى، بل رُزِقتْ كلها من حضرة الكبriاء، وقُصِّرَ منه طولُ ليالي الليلاء، وانقضتْ مِنْ حسن قضايَه مُنْتَيَةً، وما أرِقتْ في ليلِ مُقلّتي، وما تجَبَّشتْ غيرَ أمتعيَّة، حتى أُزِلْفَتْ لي روضيَّ، وأثمرتْ شجريَّ، وذَلَّلتْ علىّ قُطُوفُها من رب العالمين.

ووالله إن فوزي هذا مِنْ يدِ ربِّي، فَأَهْمَدُه وأصْلَى على نبيِّ عَرَبِيِّ، منه نزلتِ البرَّكاتُ، ومنه اللُّحْمُ والسَّدَّاهُ، وهو هِيَّا لي أصلي وفرعيَّ، وأنْبَتَ كُلَّ بذرٍ ورُرْعِيَّ، وهو خيرُ الْمُبْتَدِينِ. وما كان لي حولُّ أَنْ أُعْفَرُ العِدَا، وما هروتُ إِذ هروتُ ولكنَ اللهُ هرَى، وما رأيْتُ رائحةَ شِقٍّ النَّفْسِ، وما اشتدَّتْ لي حاجَةُ إِلَى إِنْضَاءِ العَنْسِ وما

أَعْدَيْتُ هِيَاكُلَّ الْأَنْظَارِ، وَمَا جَرِيتُ طَلْقًا مَعَ الْأَفْكَارِ، وَمَا رَأَيْتُ  
 ذَاتَ كُسُورٍ بَلْ طِرْتُ كَطِيُورًا، أَوْ كَرَاكِبَ عَيْدَهُورٍ، وَوَجَدْتُ مَا  
 تَشَتَّهِي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّلُ الْأَعْيُنُ، وَأَرْضَعْتُ مِنْ غَيْرِ بَكَاءٍ وَأَنِينٍ. فَتَأْلِيفِي  
 هَذَا أَمْرٌ مِنْ لَدِيهِ، وَكُلُّ أَمْرٍ يَعُودُ إِلَيْهِ، وَهُوَ أَحْسَنُ الْمُحْمُودَيْنَ.  
 وَإِذَا أَرْمَعْتُ لَهُذِهِ الْخَطَّةَ، وَفَكَرْتُ فِي تَلْكَ الْآيَةِ، وَكَذَلِكَ فِي  
 آيَاتٍ عُلِّمْتُ مِنْ حَضْرَةِ الْأَحَدِيَّةِ، فَأَحْسَسْتُ أَنْ قَارِعًا يَقْرَعُ بَابَ  
 بَالِيٍّ، وَيَعْلَمُنِي مِنْ عِلْمٍ عَالِيٍّ، وَيَنْفَخُ رُوحَ التَّفَهِيمِ وَالْتَّلْقِينِ، فَسَمِّيَتُ  
 الْكِتَابَ "مِنَ الرَّحْمَنِ" بِمَا أَنْعَمَ عَلَيَّ رَبِّي بِأَنْوَاعِ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ،  
 وَهُوَ خَيْرُ الْمُحْسِنِينَ. وَمَا كَانَ هَذَا أَوَّلَ آلَاهَ، بَلْ إِنِّي نَشَأْتُ فِي  
 نِعَمَاهُ، وَإِنَّهُ وَالَّذِي وَرَبَّنِي، وَأَتَانِي وَتَوَلَّنِي، وَكَفَلَنِي وَصَافَانِي، وَبَنَحَانِي  
 وَعَافَانِي، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُحَدَّثِينَ الْمَأْمُورِينَ.

وَأَمَّا تَفْصِيلُ آيَاتٍ تَؤَيِّدُ آيَةَ أُمُّ الْقَرَى، وَتَبَيَّنَ أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ أُمُّ الْأَلْسُنَةِ  
 وَإِلَهَامُ اللَّهِ الْأَعْلَى، فَمِنْهَا آيَةٌ مِنَ اللَّهِ الْمَتَّانُ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ، أَعْنِي  
 قَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَمَهُ الْبَيَان﴾. فَالْمَرَادُ مِنَ الْبَيَانِ الْلُّغَةُ  
 الْعَرَبِيَّةُ، كَمَا تَشِيرُ إِلَيْهِ الْآيَةُ الثَّانِيَةُ أَعْنِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾،  
 فَجَعَلَ لِفَظَ "الْمُبِينِ" وَصَفَّا خَاصَّاً لِلْعَرَبِيَّةِ، وَأَشَارَ إِلَى أَنَّهُ مِنْ صَفَاتِهِ  
 الْذَّاتِيَّةِ، وَلَا يَشْتَرِكُ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْأَلْسُنَةِ كَمَا لَا يَخْفَى عَلَى الْمُتَفَكِّرِينَ.  
 وَأَشَارَ بِلِفَظِ "الْبَيَانِ" إِلَى بِلَاغَةِ هَذَا الْلِسَانِ، وَإِلَى أَنَّهَا هِيَ الْلِسَانُ

الكاملة، وأنها أحاطت كل ما اشتَدَتْ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ، وتصوَّبَتْ مطْرُّهَا بقدر ما اقتضتِ الْبَلْدَةُ، وفاقتَ كُلَّ لُغَةٍ فِي إِبْرَازِ مَا فِي الْضَّمَائِرِ، وسَاوَى الْفَطْرَةَ الْبَشَرِيَّةَ كَتْسَاوِيَ الدَّوَائِرِ. وَكُلَّ مَا اقْتَضَتْهُ الْقُوَى الْإِنْسَانِيَّةُ وَابْتَغَتْهُ التَّصْوِرَاتُ الْإِنْسَيَّةُ، وَكُلَّ مَا طَلَبَهُ حَوَائِجُ فَطْرَةِ الْإِنْسَانِ، فَيَحَادِيْهَا مَفَرَّدَاتُ هَذِهِ الْلِّسَانِ، مَعَ تِيسِيرِ النُّطْقِ وَإِلْقَاءِ الْأَثْرِ عَلَى الْجَنَانِ، فَاتَّبَعَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْيَقِينِ. ثُمَّ سَيَّاقَ هَذِهِ الْآيَةِ يَزِيدُكَ فِي الْدَّرَائِيَّةِ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ بِالدَّلَالَةِ الْقَطْعَيَّةِ عَلَى مَا قَلَّنَا مِنَ الْأَسْرَارِ الْخَفِيَّةِ، لِتَكُونَ مِنَ الْمُوْقِينِ. فَتَفَكَّرُ فِي آيَةِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَمَ الْقُرْآنَ﴾، فَإِنَّ الْغَرْضَ فِيهَا ذِكْرُ الْفَرْقَانِ وَالْحَثَّ عَلَى التَّلَاوَةِ وَالْإِمْعَانِ، وَلَا يَحْصُلُ هَذَا الْغَرْضُ إِلَّا بَعْدِ تَعْلُمِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمَهَارَةِ التَّامَّةِ فِي هَذِهِ الْلَّهَجَةِ، فَلِأَجْلِ هَذِهِ الْإِشَارَةِ قَدَّمَ اللَّهُ آيَةً: ﴿عَلَمَ الْقُرْآنَ﴾، ثُمَّ قَفَّاهُ آيَةً: ﴿عَلَمَهُ الْبَيَانَ﴾، كَأَنَّهُ قَالَ: الْمَنَّةُ مَتَّنَاهُ، تَنْزِيلُ الْقُرْآنِ وَتَخْصِيصُ الْعَرَبِيَّةِ بِأَحْسَنِ الْبَيَانِ، وَتَعْلِيمُهَا لَأَدَمَ لِيَتَفَعَّلْ بِهِ نَوْعُ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّهَا مَخْزُونٌ عِلَّمَ عَالِيَّةُ وَهَدَائِيَّاتٍ أَبْدِيَّةٍ مِنَ الْمَنَانِ، كَمَا لَا يَخْفَى عَلَى الْمَتَدَبِّرِيَّنِ. فَالْحَالُ أَنَّهُ ذَكَرَ أَوْلَأَ نِعْمَةَ الْفَرْقَانِ، ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَةَ أُخْرَى الَّتِي هِيَ لَهَا كَالْبَيَانِ، وَأَشَارَ إِلَيْهَا بِلِفَظِ الْبَيَانِ، لِيَعْلَمَ أَنَّهَا هُوَ الْعَرَبِيُّ الْمَبِينُ. فَإِنَّ الْقُرْآنَ مَا جَعَلَ الْبَيَانَ صَفَّةً أَحَدَ مِنَ الْأَلْسُنَةِ مِنْ دُونِ هَذِهِ الْلَّهَجَةِ، فَأَيُّ قَرِينَةٍ أَقْوَى وَأَدْلُّ مِنْ هَذِهِ الْقَرِينَةِ لَوْ كُنْتُمْ مُتَفَكِّرِيْنَ؟ أَلَا

ترى أن القرآن سمي غير العربية أعجمياً؟ فمن الغباوة أن يجعلها للعربية سميّاً، فافهم إن كنت زكيّاً، ولا تكن من المعرضين. والنص صريح ولا ينكره إلا وقبح من المعاندين.

ومنها ما قال ذو الجد والعزة في آيةٍ بعد هذه الآية، أعني قول الله الحنان: **﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾**، فانظر إلى ما قال الرحمن، وفكّرْ كذي العقل والإمعان، وتذكّرْ كالمسترشدين، فإن هذه الآية تؤيد آيةً أولى، ويفسّر معناها بتفسير أجلٍ، كما لا يخفى على المفكّرين. وبيانه أن الشمس والقمر يجريان متعاقبين، ويحملان نوراً واحداً في اللوين، وكذلك العربية والقرآن، فإنما تعاقباً واتّحد البروق واللumen، أمّا القرآن فهو كالشارق المنير، والعربية كالبدر المستنير، ومع ذلك ترى العربية أسرع في المسير، وأجرى على لسان الصالح والشرير، وما كانت شمسُ القرآن أن تدرك هذا القمر، وكذلك قدر الله هذا الأمر، وإنما بحسبان، ويجريان كما أجرياً ولا يغيان، بحسبٍ مقدرٍ من الرحمن، فترى أن القرآن يجري برعاية أنواع الاستعداد، ويكشف على الطالب أسرار المعاد، ويربي الحكماء كما يربّي السفهاء، ويعلم العقلاً كما يعلم الجهلاً، وفيه بلاغ لكل مرتبة الفهم، وتسليمة لكل أرباب الدهاء والوهم، وساوى جميع أنواع الإدراك من أهل الأرض إلى أهل الأفلاك، وإنه أحاط دوائر فهم

الإنسان، مع التزام الحق وإقامة البرهان، وإنه نور تام مبين. وأما اللغة العربية فحسبانها أنها تجري تحت مقاصد القرآن، وتتم بمنفرداته جميع دوائر دين الرحمن وتخدم سائر أنواع التعليم والتلقين. وإنها من أعظم مَحَالِي القدرة الربانية، وخصَّها الله بنظام فطري من جميع الألسنة، وأودعها محسنَ الصنعة الإلهية، فأحاطت جميع لطائف البيان، وأبدى الجمال كأحسن أشياء صدرت من الرحمن. وهذا هو الدليل على أنها ليست من الإنسان، وفيها صبغة حِكْمَيَّة من الله المَنَان، وفيها حُسْنٌ وبهاءً وأنواع اللمعان، وفيها عجائبُ صانعِ عظيم الشأن، تَلَمَّع وجهُها بين صفوف ألسنة شتى، كأنها كوكبٌ دُرَّيٌّ في الدجى. وإنها كروضة طيبة على نهر جار، مشمرة بأنواع ثمار، وأمّا الألسن الأخرى فقد غير وجهها قَتْرٌ تصْرُّفِ التَّوْكِي، وما بقيتْ على صورتها الأولى، فهي كأشجار اجتَسَتْ من مغارسها، وبُعْدَتْ مِن نواضر حارسها، ونُبَذَتْ في موْمَأٍ وقُفْرٍ وفلاة، فاصفررتْ أوراقها، وبيَسَتْ ساقها، وسقطتْ أثمارها، وذهبتْ نضرتها وانحضرارها، وترى وجهها كالمخذولين.

فواهَا للعربية.. ما أحسن وجهها في الحلل المنيرة الكاملة! أشرقت الأرضُ بأنوارها التَّامَّة، وتحقَّقَ بها كمالُ الْهُوَيَّة البشرية. توجد فيها عجائب الصانع الحكيم القدير، كما توجد في كل شيء صدر من

البديع الكبير. وأكملَ اللهُ جَمِيعَ أَعْصَائِهَا، وَمَا غَادَرَ شَيْئاً مِنْ حُسْنِهَا وَبَهَائِهَا. فَلَا جَرَمَ تَجْدُهَا كَامِلَةً فِي الْبَيَانِ، مُحِيطَةً عَلَى أَغْرَاضِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ، فَمَا مِنْ عَمَلٍ يَبْدُو إِلَى انْقِرَاضِ الزَّمَانِ، وَلَا مِنْ صَفَةٍ مِنْ صَفَاتِ اللَّهِ الدِّيَانِ، وَمَا مِنْ عَقِيْدَةٍ مِنْ عَقَائِدِ الْبَرِّيَّةِ، إِلَّا وَلَهَا لَفْظٌ مُفْرِدٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ، فَاخْتَبِرْ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْتَابِيِّينَ. وَإِنْ كُنْتَ تَقْوُمُ لِلْخَبِيرَةِ كَطَالِبِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ، فَوَاللَّهِ مَا تَجَدُ أَمْرًا مِنْ أَمْوَارِ صَحِيفَةِ الْفَطْرَةِ، وَلَا سَرَّاً مِنْ مَكْتُوبَاتِ قَانُونِ الْقَدْرَةِ، إِلَّا وَتَجَدُ بِحَذَائِهِ لَفْظًا مُفْرِدًا فِي هَذِهِ الْلَّهَجَةِ، فَدَقَقِ النَّظَرَ، هَلْ تَجَدُ قَوْلِيَ الْمُتَصَلِّفِيْنَ. كَلَّا.. بَلْ إِنَّ الْعَرَبِيَّةَ أَحْاطَتْ جَمِيعَ أَغْرَاضِنَا كَالْدَائِرَةِ، وَتَجَدُهَا وَصَحِيفَةَ الْفَطْرَةِ كَالْمَرَايَا الْمُتَقَابِلَةِ، وَمَا تَجَدُ مِنْ أَخْلَاقٍ وَأَفْعَالٍ، وَعَقَائِدَ وَأَعْمَالٍ، وَدُعَوَاتٍ وَعَبَادَاتٍ، وَجَذَبَاتٍ وَشَهَوَاتٍ، إِلَّا وَتَجَدُ فِيهَا بِحَذَائِهِ مُفْرَدَاتٍ، وَلَا تَجَدُ هَذَا الْكَمَالُ فِي غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ، فَاخْتَبِرْ إِنْ كُنْتَ لَا تُؤْمِنُ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ كَالْمَعَانِدِيْنَ.

وَاعْلَمُ أَنَّ لِلْعَرَبِيَّةِ وَصَحِيفَةِ الْقَدْرَةِ تَعْلِقَاتٍ طَبِيعِيَّةً، وَانْعَكَاسَاتٍ أَبْدِيَّةً، كَأَنَّهُمَا مَرَايَا مُتَقَابِلَةٍ مِنَ الرَّحْمَنِ، أَوْ تَوَعَّدَانِ مُتَمَاثِلَانِ، أَوْ عَيْنَانِ مِنْ مَنْبِعِ تَخْرِجَانِ وَتَصْدِيَّانِ، فَانْظُرْ وَلَا تَكُنْ كَالْعَمِينِ. فَهَذِهِ نَصْوُصَ قَاطِعَةٍ، وَحَجَجْ يَقِينِيَّةٍ عَلَى أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ هِيَ الْلِسَانُ، وَالْفَرْقَانُ هُوَ النُّورُ التَّامُ الْفَرْقَانِ، فَفَكِّرْ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِيْنَ. وَمَنْ

فَكَرْ في القرآن وتدبَّرَ كلماتِ الفرقان، ففهمَ أنَّ هذا قد ثبتَ من البرهان، وما كتبناه كالظانين، بل أُوتينا علماً كثوراً مبيناً.

ثمَّ اعلمْ يا طالبَ الرشدِ والسدادِ، أنَّ التوحيدَ لا يتمُّ إلَّا بِهذا الاعتقادِ، ولا بدَّ مِنْ أنْ نؤمنَ بِكمالِ الوثوقِ والاعتمادِ، بأنَّ كلَّ خيرٍ صدرَ مِنْ ربِّ العبادِ، وهو مبدأً كُلَّ فِيضٍ للعَالَمِينَ. ومن المعلومَ عندَ ذُويِّ العِرْفَانِ، أنَّ طاقةَ النُّطُقِ والبيانِ مِنْ أَعْظَمِ كَمَالَاتِ نوعِ الإنسانِ، بل هي كِلَّ الأَرْوَاحِ لِلأَبْدَانِ، فَكَيْفَ يُتَصَوِّرُ أَنَّهَا مَا أُعْطِيَتْ مِنْ يَدِ المَنَّانِ؟ كَلَّا.. بل هي تَتَمَّمُ الْخِلْقَةَ الْبَشَرِيَّةَ، وَحَقِيقَةُ الأَرْوَاحِ الْإِنْسِيَّةِ، وَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ نَعْمَلِ حَضُورَ الْأَحَدِيَّةِ، وَلَا يَتَمَّ التَّوْحِيدُ إِلَّا بَعْدَ هَذِهِ الْعِقِيدَةِ. أَيْرَضَى مُوَحَّدٌ بِأَمْرٍ فِيهِ نَقْصٌ حَضُورَ الْعَزَّةِ، أَوْ فِيهِ شَرْكٌ كِعَاقِدِ الْمُشْرِكِينَ؟ وَإِنَّ الَّذِينَ يَعْرَفُونَ اللَّهَ حَقَّ الْعِرْفَانِ، يَعْلَمُونَ أَنَّهُ فِي كُلِّ خَيْرٍ مَبْدُأَ الْفَيْضَانِ، وَأَنَّهُ مُوجِدُ الْمُوْجَدِينَ، وَلَا يَتَكَلَّمُونَ كَالدَّهْرِيِّينَ وَالْطَّبَعِيِّينَ، أَوْلَئِكَ الَّذِينَ أُوتُوا حَظًّا مِنَ الْعِرْفَةِ، وَسُقُوا مِنْ كَأسِ تَوْحِيدِ الْحَضُورِ، وَجَعَلُوا مِنَ الْفَائِزِينَ. وَإِنْ رَبَّنَا كَامِلَ مِنْ جَمِيعِ الْجَهَاتِ، وَلَا يُعَزِّي إِلَيْهِ نَقْصٌ فِي الْذَّاتِ وَالصَّفَاتِ، وَإِنَّهُ حَمِيدٌ لَا يَفْرُطُ إِلَيْهِ ذُمٌّ، وَقُدُّوسٌ لَا يَلْحَقُهُ وَصَمٌّ، وَهَذَا هُوَ مَحْجَّةُ الْإِهْتِدَاءِ، وَمَشْرِبُ الْأُولَيَّاءِ وَالْأَصْفَيَاءِ، وَصَرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَسَبِيلُ الَّذِينَ نُورَ عَيْنِيهِمْ، غَيْرُ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الْضَّالِّينَ.

فَوَاللَّهِ الَّذِي هُوَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، إِنَّ الْبَشَرَ مَا وَجَدَ كَمَالًا إِلَّا  
مِنْ فِيْضِهِ التَّامِ، وَهُوَ خَيْرُ الْمَعْمَنِينَ. أَمْ يَقُولُونَ إِنْ نِعْمَةُ النَّطْقِ مَا  
جَاءَتْ مِنَ الرَّحْمَنِ، وَمَا كَانَ مَعْطِيهَا خَالِقُ الْإِنْسَانِ؟ فَهَذَا ظُلْمٌ وَزُورٌ  
وَغَلُوٌّ فِي الْعُدُوَانِ كَالشَّيَاطِينِ. وَتَلْكَ قَوْمٌ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ،  
وَمَا نَظَرُوا إِلَى شَمْسِهِ وَبَدْرِهِ، وَمَا فَكَرُوا أَنَّهُ هُوَ رَافِعُ كُلِّ الدُّجَى،  
وَأَنَّهُ خَالِقُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى. خَلَقَ الْإِنْسَانَ ثُمَّ أَنْطَقَهُ ثُمَّ  
هَدَى، وَمَا مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا أَعْطَى، فَهَذَا هُوَ رَبُّنَا الْأَعْلَى، وَخَالَقَنَا  
الْأَغْنَى. وَسَعَتْ نِعْمَةُ ظَاهِرَنَا وَبَاطِنَنَا، وَأَحْاطَتْ آلَاؤهُ أَبْدَانَنَا  
وَأَنْفُسَنَا. هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَأَتَمَّ الْخَلْقَ وَزَانَ، وَأَكْمَلَ  
الْإِحْسَانَ، فَكَيْفَ يُيْظَنُ أَنَّهُ مَا عَلِمَ الْبَيَانَ؟ أَتَظَنُ أَنَّهُ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ  
الْبَشَرِ وَمَا قَدَرَ عَلَى الإِنْطَاقِ وَإِزَالَةِ الْحَصْرِ، أَوْ كَانَ مِنَ الْغَافِلِينَ؟  
أَفَأَنْتَ تَعْجَبُ هَنَّا مِنْ قَدْرَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟ وَتَرَى أَنَّهُ قَوِيٌّ مُتِينٌ، وَأَنَّهُ  
خَالِقُ الْجَوْهَرِ وَالْعَرْضِ، وَمُنْوِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمُجِيبُ دُعَوَاتِ  
الْدَّاعِينَ. فَهَلْ لَكَ أَنْ تَتُوبَ إِلَيْهِ وَتَمْيلَ، وَتَتَحَامِيَ الْقَالَ وَالْقَلِيلَ؟ وَاللَّهُ  
يَحْبُّ الصَّالِحِينَ.

فَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّ رَبَّنَا هُوَ نُورٌ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَمُنْبِرٌ مَا فِي  
الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، ثَبَتَ أَنَّهُ الْمُفَيِّضُ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْحَاءِ وَخَالِقُ الرَّقِيعِ  
وَالْغَبْرَاءِ، وَهُوَ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، وَأَنَّهُ أَعْطَى الْعَيْنَيْنِ وَخَلَقَ الْلِّسَانَ

والشفتين، وهدى الرضيع إلى النجدين، وما غادر من كمالٍ مطلوبٍ، إلا أعطاها بأحسن أسلوب، فمن الغباوة أن تظن أن النطق الذي هو نورٌ حقيقة الإنسان، ومناطُ العبادة والذكر والإيمان، ما أُعطيَ مع الخلقة من الرحمن، بل وجَده البشرُ بشِقّ النفس وجهدِ الجنان، بعدَ تطاوُلْ أَمْدٍ وامتدادِ الزمان، وهل هذا إلا افتراء الكاذبين؟ ومن آمنَ بالذِي له كمالٌ تامٌ في الذات والصفات، وفيوضٌ متنوعة لأهل الأرض والسماءات، وعرف أنه مبدأ الفيوض من جميع الجهات، يؤمن بالضرورة بأنه أُعطيَ كُلَّ شيءٍ خَلَقَه وما غادرَ شيئاً من الكلمات، وهو مُفِيضٌ كُلَّ فيض احتاجت إليه طبائع المخلوقات بحسب الاستعدادات، وما نعَبَ غُرَابٌ إلا بتعليمه، وما زَرَ أَسْدٌ إلا بتفهيمه، هو منبُعُ كُلِّ خيرٍ وفيضان، ومعلُّمٌ كُلَّ نطقٍ وبيان، وكذلك كان شأن رب العالمين. أَتَزعمُ أنه ربُّ الإنسان كرجل عاجزٌ من إكمال التربية؟ لا.. بل ربّاًه بأيدي القدرة التامة، حتى وهب له لقب الخليفة، وكمّله بكمال الفضل والرحمة، وأُعطيَ له ما لم يُعْطِ أحدٌ من المخلوقين. وإنَّه هو اللهُ الذي يُرْبِي الأشجار ب التربية كاملة حتى يجعلها دوحاً ذات عظمة، ويزينها بزهر وأنواع ثمرة، وأظلال باردةً ممدودة تسرُّ الناظرين. فما زعمك أنه خلقَ الإنسان

خلقاً غير تام، وما بلّغه إلى مقام فيه كمالٌ نظام، وتركه ناقصاً كاللاغبين؟

ثم العلوم التي توجد في مفردات اللسان العربية، تشهد بالشهادة الجلية، أنها ليست فعلً أحدٍ من البرية، وأنها من خالق السماء والأرضين.

ولا يختلُج في قلبك أن الإنسان لا يتولَّد ناطقاً متكلّماً، بل يجد هذا الكمالَ متعلّماً، كما نشاهد بالحق واليقين، فإن هذا الإيراد عليك لا لك، فأصلحْ حالك، ولا يغفل بالك كالنائمين. فإنك إذا قبلتَ أن النطق لا يحصل إلا بالتعليم، فلزمك أن تقبل أن البشر الأوّل ما فهم إلا بالتفهيم، فأقررتَ بما أنكرتَ إن كنت من المتفكرين. وقد جرّب الناسُ، وَتَظاهَرَ الخبرةُ والقياسُ، أن الأطفال المتولَّدين لو يُترَكون غيرَ متعلّمين، ولا يعلّمهم لسانهم أحدٌ من المعلّمين، فلا يقدرون على نطق، ولا يجيرون المنطقين، بل يبقون كُلُّكم صامتين. فأي دليل أوضح من هذا لمن طلب الحق وهو أمين، وما اتّبع سبل الضالين؟ فجاهِدْ حقَّ الجهاد، وفَكِّرْ كأهلِ الرشاد، ولا تستعجلْ كالمعرضين. ومن أجلِي البديهيات أن آدم خُلق مِنْ يد ربِّ الكائنات، وما كان أحدٌ معه من المعلّمين والمعلمات، فثبتت أن معلّمه كان خالقَ المخلوقات، أفلَّا تؤمن بقدرة قويٍّ متين؟ أفلَّا تعلم أن

وجود البرية ظلٌّ لصفة الربوبية، وبها كان ظهورهم في هذه النشأة، وكان النطق مِن تتمة خلق الإنسان، فكيف يجوز الخداجُ للذي ظهر من يدي الرحمن؟ أترעם أن الله الذي نفح روحه فيه، ما كان قادرًا أن ينطق فيه؟ ما لك لا تفكّر كالمُسْتَرِّشِدِينَ؟ أتظنَّ أن الله غادر ربوبيته ناقصةً، أو وثتْ يدُه بعدهما أرَى قدرة، أو كفأَهُ رجل من الحاجزين؟ وإن كنتَ تُقرُّ بالتعليم، ولكن لا تُقرُّ بتعليم ربِّ الكَرِيمِ، بل تسلكَ مسلكَ فلاسفةِ هذا الزمان، وتذهب إلى قِدَمِ نوعِ الإنسان، فاعلمُ أن هذا باطل بالبداهةِ والعيان، وإنْ هو إلا الدعوى كدعوى الصبيانِ، أو هَذِيْ كهذيان النشوانِ، ما أتوا عليه بالبرهانِ، وما كانوا مُثبِّتينِ. وكيف وإنْ تفردَ حضرة الأَحَدِيَّةِ في كمالِ الذاتِ والهُوَّيَّةِ، يقتضي إرادةً نقصانَ البريةِ، ليعلموا أن البقاءُ الذي هو نوع من الكمالِ، لا يوجد إلا في حيٍ ذي العزةِ والجلالِ، وليعلموا أنه صمدٌ غنيٌّ كفاه وجودُهِ، ولا حاجةٌ أن يكونَ أحدٌ ولِيَهُ وودودهِ، وليس عليه إبقاءُ أحدٍ على وجهِ الوجوبِ، وليس أمرُ لذاتهِ الغنيِّ كالمطلوبِ، وليس له حاجةٌ إلى المخلوقينِ، بل قد تقتضي ذاتُه تخلّياتِ الربوبيةِ، ليُعرَفَ أنها من صفاتِه الذاتيةِ، فيخلقُ ما يشاءُ بالأمرِ والإرادةِ، وقد يقتضي تخلّياتِ الأَحَدِيَّةِ ليُعرَفَ أن غيره هالكةُ الذاتِ باطلةُ الحقيقةِ، وليس له إلَيْهِ مثقال ذرةٍ من الحاجةِ، فِيهِلُكُ كُلُّ من

على الأرض من نوع الخلقة، ولا يُغادر فرداً من أفراد البريّة إلا ويُمحو أثره بالإهلاك والإماتة، وكذلك يُديم صفاتِه إلى أبد الآبدين، وكل صفة يقتضي ظهوره بعد حين، فيخلقُ قروناً بعدما أهلكَ قروناً أولى، ليُعرف بصفاتِه عليها مدارُ نجاة الورى، ولا يحتاج إلى قِدَمٍ نوعٍ كما هو زعمُ النّوكي، وهو غني عن العالمين. ولا تنفكُ صفاتُ الرحمن من ذات الرحمن، وترى دورَ صفاتِ الله القهّار كدور الليل والنهار، ولا تعطل صفاتِه كما هو زعم العافليين، بل يقتضي ذاتُه وقتَ الإفقاء كما يقتضي وقتَ الإنشاء، ليتحققَ كُلُّ صفة من صفاتِه الغرّاء، وليعرف الناس تفرُّد ذاته، ولا يعتقدوا بنقصِ كمالاته كالمشركين، وليرُقَّ توحيدَه، ويتحلّى تمجيده، ويُعرفَ دينُ الله بالدائرة الأبدية والسنن القديمة المستمرة، ويُبسطَ كفارةَ الكفّرة الفجّرة، ويُمحو طريق الشرك والبدعة، وليسَ بين سبيل المجرمين. فهذا أمرٌ اقتضته ذاتُه، لتعُرف به صفاتُه، ولينقطع دابر المفترين. فقد يأتي وقتٌ على هذه النّشأة لا يبقى وجودٌ إلا وجودُ الحضرة، ويُحِفِّشُ السُّلُوكُ على كُلِّ ثلْعَةِ الخلقة، وتدرُسُ أطْلَالُ الكِيُونَة، ولا ينفع خبطُ أحداً من الخابطين، ثم ي يأتي وقتٌ تبدو سلسلة المخلوقات. فهذا أثرانِ متعاقبان من ربِّ الكائنات، لثلا يلزم تعطُّلُ الصفات. فإذا ثبتَ هذا الدور في صفاتِ الرحمن، وثبتَ الإفقاء والإنشاء من سُنْنِ المَنَان

من قدسِيِّ الزَّمَانِ، فَقَدْ بَطَلَ مِنْهُ رَأْيُ قِدَمٍ نَوْعَ الْإِنْسَانِ، وَكَيْفَ الْقِدْمُ مَعَ أَزْمَنَةِ الْعَدْمِ وَالْفَقْدَانِ وَأَوَانِ الْفَنَاءِ وَالْبَطْلَانِ. فَانْظُرْ كَالْجُهْدِينَ وَلَا تَتَكَلَّمْ كَالْمُسْتَعْجِلِينَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْقِدْمَ الْحَقِيقِيِّ لَا يَوْجِدُ إِلَّا فِي ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَيَدُورُ رَحْيُ الْفَنَاءِ عَلَى الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَامِ، وَأَحَدِيَّتُهُ تَقْتَضِي فَنَاءَ الْغَيْرِ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ، إِلَّا الَّذِينَ دَخَلُوا فِي دَارِ اللَّهِ، وَغُسِّلُوا بِبَحْرِ اللَّهِ، وَحَفَّتْ بَهُمْ أَنُوَارُ اللَّهِ، وَأَزْيَلَ أَثْرُ الْغَيْرِ بِآثَارِ اللَّهِ، وَمَاتُوا وَهُمْ كَانُوا فَانِينَ فِي حُبِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَنْدُوْقُونَ الْمَوْتَ بَعْدِ مَوْتِهِمُ الْأُولَى، رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِمُ الْأَعْلَى، فَلَا يَرَوْنَ أَمْلَاً وَلَا بَلْوَى، وَيَبْقَوْنَ فِي جَنَّةِ اللَّهِ الْخَالِدِينَ، وَيُعْطِيهِمُ اللَّهُ حَيَاةً مِنْ حَيَاةِهِ، وَكَمَالَاتٍ مِنْ كَمَالَاتِهِ، وَلَا تُغْنِيهِمْ غَيْرُهُ بِمَا أَحْاطَتْ عَلَيْهِمْ أَحَدِيَّتُهُ، فَطَوْبِي لِلَّذِينَ ضَلَّلُوا فِي حُبِّ مَوْلَى قَوِيٍّ مُتَّيِّنٍ.

ثُمَّ نَعُودُ إِلَى كَلْمَتَنَا الْأُولَى، وَنَقُولُ إِنَّ اللَّهَ الْأَقْنَى جَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْمَاءِ حَيًّا، وَالْمَاءُ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ بِأَنْوَاعِ الْبَرَكَاتِ وَالْعَطَاءِ، فَالْأَنْتِيَّةُ أَنَّ كُلَّ فِيْضٍ جَاءَ مِنْ حَضْرَةِ الْكَبِيرِيَّاءِ، وَهُوَ مَبْدِئًا كُلَّ خَيْرٍ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَهَذَا رُدُّ آخِرٍ عَلَى الْمُنْكَرِيْنَ، الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ إِنْسَانًا كَأَبِكُمْ، وَمَا فَهَمُ وَمَا عَلِمَ، وَخَلَقَهُ كَالْنَاقْصِيْنَ.

هذا ما كتبنا للملحدين والطبيعين الذين لا يؤمنون بدين الله ويقولون ما يقولون مجترئين، وأما الذين يؤمنون بما جاء به رسول الله خاتم النبيين، فيكفي لهم ما أثبتنا من كتاب مبين. أيامهم توحيدهم أن ينسبوا فعل الله إلى غير رب القدير، أو يقسموا خلق الله بين رب والعبد الحقير، أو يحسبوا خلقه الأشرف ناقصاً محتاجاً إلى الناقصين؟ كلا.. بل هي كلمة لا تخرج من أفواه المؤمنين الموحدين. وللنطق شأن خاص كشأن الحياة، وقد خصه الله بالبشر من جميع الحيوانات، فكما أن البشر ما وجدوا الحياة إلا من الرحمن، فكذلك ما وجدوا النطق إلا من ذلك المنان، وهذا هو الحق أفانت من المرتابين؟ وإن كنت تظن أن أمّك علمك اللسان، فمن علم أمّك الأولى وعلّمها البيان؟ فلا تكونن من الجاهلين.

وإن الله أومى في مقامات من الفرقان، إلى أن العربية هي أمّ الألسنة ووحي الرحمن، ولأجل ذلك سمى مكةً وأمّ القرى، فإن الناس أرضعوا منها لبانَ اللسان والهدى، فهذه إشارة إلى أنها هي منبع النطق والنهي، ففكرةً في قول رب الورى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾، وفي ذلك آية للذى يتّق الله ويخشى، ويطلب الحق ولا يأبه، ولا يتّبع سبل المعرضين.

ثم أنت تعلم أن رسولنا خاتم النبيين كان نذيرا للعالمين، وكذلك سماه ربُّه وهو أصدق الصادقين، فثبت أن مكة أمُّ الدنيا كلها، ومولدُ كثُرِها وقلُّها، ومبدأ أصلِ اللغات ومركزُ الكائنات أجمعين. وثبت معه أن العربية أمُّ الألسنة، بما كانت مكَّة أمَّ الأمكنة مِن بَدْءِ الفطرة، وثبت أن القرآن أمُّ الصحف المطهرة، ولذلك نزل في اللغة الكاملة المحيطة، واقتضت حِكْمَ إراداتِ الإلهية، أن ينزل كتابه الكامل الخاتم في اللهجة التي هي أصل الألسنة وأمُّ كل لغة من لغات البريَّة، وهي عربي مبين. وقد سمعت أن الله جعل لفظ البيان صفةً للعربية في القرآن، ووصف العربية بعربي مبين، فهذه إشارة إلى فصاحة هذا اللسان وعلوًّ مقامها عند الرحمن، وأمًا الألسنة الأخرى، فما وصفها بهذا الشأن، بل ما عزَّاها إلى نفسه لتعليم الإنسان، وسمى غيرَ العربية أعمجَّيًا، ففكَّرْ إن كنتَ زكيًّا، وطوبى للمتفكرِين. وما نطق التوراة بهذا الدعوى ولا وَيْدُ الهندود ولا كتبُ أخرى، وما أشار أحدٌ وما أومى، فلا يَعْرُ إلى أحد منها ما لا عزا، أو أَخْرِجْ لنا هذا الدعوى، إن كنت تزعم أن أحدًا ادعى، ولن تستطيع أن تخرجها، فلا تتبع سبيل المفترين.

ثم أعلم أن العرب مشتقون من الإعراب، وهو الإفصاح في التكلم والسؤال والجواب، يُقال: أَعْرَبَ الرَّجُلُ، إذا كانت في كلامه الإبانة

والإيصال والرزانة، وما كان كرجل لا يكاد يُبيّن. وأما الأعجم فهو الذي لا يُفصّح كلامه، ولا يحفظ نظامه، ولا يُري حلاوة اللسان، ولا يرتّب أعضاء البيان، بل يأكل أكثرها، ويرى بعضها كعُضيَنَ، فهذا لفظان متقابلان، ومفهومان متضادان، وما اخترعهما أحدٌ من الشيوخ والشبان، بل هما من خالق الإنسان لقوم متذمرين.

وقد جاء لفظ "العرب" في كتبٍ أولى.. صُحُفٌ يسعياه وموسى، وفي الإنجيل تقرأ وترى، فثبتت أنه من الله الأعلى، وليس كهذا الاسم اسم لسانٍ من الألسنة الأعجمية، ولن تجد نظيره في العبرانية وغيرها من اللهجة، ففَكِّرْ هل تعلم لها سَمِّيًّا في تلك الألسنة؟ فثبتت أن العربية هي اللسان، ولا يوجد في غيرها هذا الشأن، ففَكِّرْ إن كنت من المشككين.

ومن أجل العلامات أن اللسان الذي كان من رب الكائنات، وكان من أحسن اللغات، وأبهى في الصفات، هو اللسان الذي مدحه الله وسماه باسم حَسَنٍ، كما هي سُنّة رب ذي مِنْ. فَأَنْبُوا بذلك اللسان، إن كنتم في شك من هذا البيان، ولن تجدوا كالعربية اسمًا في الحُسن واللمعان، ففي ذلك آيات للمتوضّفين.

وأما العَجَم فهم عند الله كُبُّكُم لا لسان لهم، أو كبهائم لا بيان لهم، فإن تَكَلُّمُهم ما حصل لهم إلا بالعربية، وليس لفظٌ عندهم إلا

من هذه اللهجة، ولا يقدرون من دون العربية على المكالمات، فيتحقق حينئذ أنهم كالعجماء، فقابل بوجهٍ طليق أو خاصٍ بلسان ذليق، إنك من المغلوبين. فأوصيك أن تفكّر في هذا الدعوى، وثذكّر قوماً نوّكى إن كنتَ من العاقلين، واشكر الله على ما جاءك من البراهين.

ولا تنس أن لفظ العجم قد اشتُقَّ من العجماء وهو البهيمة في هذه اللغة الغرّاء، فتدبّر وجه التسمية، ليكشف عليك لُبُّ الحقيقة، ولتكون من الموقنين. وكم من آية تدل عليها لو كتتم طالبين. ومنها أن الله سَمِّيَ الإنسان سَمِّيَاً في الفرقان، فِيْهُمْ منه أنه أسمعه في أول الزمان، وما تركه كالمخدولين.

ومنها أنه أوضح في "البقرة" هذا الإيماء، وقال: ﴿عَلَمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾، فهذا التعليم يدل على أشياء: منها أنه كان مُعْلِمَ الكلمات بتوسيط المسمّيات، وعني بالسمّيات كُلَّ ما يمكن بيانه بالإشارات، فعلاً كان أو من أسماء المخلوقات. ومنها أنه كان مُعْلِمَ حقائق الأشياء، وخصوصاً المكتومة المخزونة في حِيز الاختفاء، بلغة عربى مبين.

وإن قلتَ إن النحويين خصّصوا لفظ الاسم بالأسماء المخصوصة التي لها معانٍ ولا تقتربُ بأحد من الأزمنة الثلاثة، فجوابه أن ذلك

اصطلاح لهذه الفِرقَةِ، ولا اعتبارَ به عند نظر الحقيقة، فانظرْ  
كالمبصرين.

وإِنْ قيلَ إِنَّ المشهورَ بَيْنَ الْعَامَّةِ مِنْ أَهْلِ الْمَلَّةِ، أَنَّ اللَّهَ عَلِمَ آدَمَ  
جَمِيعَ الْلِّغَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَكَانَ يَنْطَقُ بِكُلِّ لِغَةٍ مِّنَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارَسِيَّةِ  
وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَلْسُنَةِ، فَجُوَابُهُ أَنَّ هَذَا خَطَّأً نَشَأَ مِنَ الْغَفْلَةِ، لَا يَلْتَفِتُ  
إِلَيْهِ أَحَدٌ مِّنْ أَهْلِ الْخَبْرَةِ، بِمَا خَالَفَ أَمْرًا ثَبَّتَ بِالْبَدَاهَةِ، وَمَا هُوَ إِلَّا  
زَعْمُ الْغَافِلِينَ. بَلِ الْعَرَبِيَّةُ هِيَ الْلِّسَانُ مِنْ مُسْتَأْنَفِ الْأَيَّامِ وَمُسْتَطْرَفِهَا،  
وَلَيْسَ غَيْرُهَا إِلَّا كَمَرْجَانٍ مِّنْ دُرَّرِ صَدَفِهَا. وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ  
وَالْتُّورَاةَ قَدْ أَثْبَتَا مَا قَلَّنَا وَأَكْمَلَا إِلَيْثَاتَهُنَّ. أَلَا تَعْلَمُ مَا جَاءَ فِي  
الْإِصْحَاحِ الْحَادِيِّ الْعَشَرَ مِنْ "الْتَّكَوِينِ"؟ فَإِنَّهُ شَهَدَ أَنَّ الْلِّسَانَ كَانَتْ  
وَاحِدَةً فِي الْأَرْضِيْنِ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا بِبَابِ مُعْرِقِيْنَ. وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَقَدْ سَبَقَ  
فِيهِ الْبَيَانُ، فَفَكَرْ كَالْمُحَقِّقِينَ.

ثُمَّ هَنْهَا طَرِيقٌ آخَرُ لِطَلَابِ الْحَقِّ وَالْمَعْرِفَةِ، وَهُوَ أَنَّا إِذَا نَظَرْنَا فِي  
سُنُنِ اللَّهِ ذِي الْجَلَالِ وَالْحَكْمَةِ، فَوَجَدْنَا نَظَامَ خَلْقِهِ عَلَى طَرِيقِ  
الْوَحْدَةِ، وَذَلِكَ أَمْرٌ اخْتَارَهُ اللَّهُ لِهُدَايَةِ الْبَرِّيَّةِ، لِيَكُونَ عَلَى أَحَدِيْهِ أَحَدٌ  
مِّنَ الْأَدَلَّةِ، وَلِيَدُلِّ عَلَى أَنَّهُ الْخَالِقُ الْوَاحِدُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي السَّمَاءِ  
وَالْأَرْضِيْنِ. فَالَّذِي خَلَقَ إِلَيْسَانَ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، كَيْفَ تُعَزِّي إِلَيْهِ  
كَثْرَةُ غَيْرِ مَرْتَبَةٍ، وَلِغَاتُ مُتَفَرِّقَةٍ غَيْرِ مُنْتَظَمَةٍ؟ أَلَا تَعْلَمُ أَنَّهُ رَاعَى

الوحدة في كل كثرة، وأشار إليه في صحف مطهرة وكتاب إمام العارفين؟ وأبان في صحفه الغراء، أنه خلق كل شيء من الماء، فانظر إلى سُنة حضرة الكبriاء، كيف ردَّ الكثرة إلى وحدة الأشياء، وجعل الماء أُمَّ الأرضِ والسماءِ، ففكَّر كالعقلاء، فإنه عنوان الاهتداء، ولا تستعجل كالجاهلين. وإن هذه الآية دليل واضح على سُنة خالق الرقيع والغبراء، وفيها تبصرة لأهل الأنظار والآراء. والله وترُّ يحبُّ الوتر يا عشرَ الطلباء. هو الذي نورٌ من نورٍ واحدٍ نجوم السماء، وخلق نفوساً متشابهة على الغبراء، وجعل الإنسانَ عالماً جامعاً جميع حقائق الأشياء. فلو لم يكن نظام الخلق مبنياً على الوحدة، لما وجدتَ في خلق الله وجودَ هذه المشابهة، ولكن خلقُ الله كالمترافقين. بل لو لم يكن النظام الوحداني، لبطلت الحِكم وضاع السر الروحاني، وسُدَّ الصراط الرَّبَّاني، وعُسرُ أمر السالكين. فما لك لا تفهم وحدة دالَّة على الوحدة، وهي في الإسلام مدار التوحيد، وأصل كبير للتعظيم والتمجيد، وسراج منير لعرفة الوحدانية الإلهية والأحدية الربَّانية، وإنما من علوم اختصَّت بال المسلمين.

ثم أعلم أن الآثار النبوية والنصوص الحديبية، قد بلغتْ في هذا إلى كمال الكثرة، حتى أعطتْ ثلْجَ القلب ونُورَ السكينة، كما لا يخفى على المحدثين. وأنَّ أَبْنَ عَسَّاَكَرَ في التاريخ وهو المقبول الثقة قال

قال ابن عباس: إن آدم كانت لغته في الجنة العربية. وكذلك أخرج عبد الملك حديثاً من خير الورى، ورجال آخرون أولوا العلم والنهاي، وحدّثوا برواية أخرى، فقالوا إن العربية هي اللسان الأولى من الله المولى، نزلت مع آدم من الجنة العليا، ثم بعد طول العهد حرفٌ وحدثت لغات شتى. وأول ما ظهر بعد التحريف، كان سريانياً بإذن الله اللطيف، وصرف الله إليه لهجة المبدلين، ولأجل ذلك سُمي العربي الأول عند المقدمين، وكان عربياً بأدنى تصريف المتصرفين. ثم حدثت السنة أخرى، كما حدثت الملل والنحل في الدنيا، وهذا هو الحق فتَدَبَّرْ كالعاقلين.

ثم من سبل العرفان أنك تجد في القرآن، ذِكْرًا واحدًا في اختلاف اللسان والألوان، فالله يشير إلى أن اللسان كانت واحدة في زمان، كما كان اللون لوناً واحداً قبل ألوان، ثم اختلفا بعد زمان وحين.

ثم من لطائف الإيماء أن خاتم الأنبياء، جعل نفسه شريكَ آدم في تعلم الأسماء، كما أخرج الدليلي في حديث الطين والماء، ففكّر فيما قال خاتم النبيين: مثلتْ لي أميّة في الماء والطين، وعلّمتُ الأسماء كما علّم آدم الأسماء، فانظر إلى ما أشار فخرُ المرسلين. وأنت تعلم أنه عليه السلام كان أمياً لا يعلم غير العربية، نعم.. أُوتِيَ جوامع الكلم في هذه اللهجة، فظهر أن المراد من الأسماء في قصة آدم وحديث خير الأنبياء

هي العربية المباركة، كما تدل عليه النصوص القطعية من كتاب مبين. ألا تنظر إلى اشتراك الألسنة؟ فإنه يوجد في كثير من الألفاظ المترفة، ولا يمكن هذا إلا بعد كونها شَعْبَ أَصْلٍ واحدٍ في الحقيقة، وإنكارُها كإنكار العلوم الحسية والأمور الثابتة المرئية. فإنْ كان تغايرُ الألسنة من أول الفطرة، فكيف وُجد الاشتراك مع عدم الاتحاد في الأصل والجرثومة؟ فلا بد من أن نقرّ بلسانٍ، هي أُمُّ كلّها لكمال بيان، وإنكاره جهلٌ وسفاهة، واللَّدُدُ تحكُّمٌ ومكابرة، وقد تبيّن الحق لو كنتم طالبين.

وفي العربية كمالات وخصوص وآيات تجعلها أُمَّ غيرها عند المحققين. وإنما وقعتْ لها كالظلّ، أو كالعصفور عند البازي المُطلِّ، فاسمعْ بعض آياتها وكنْ من المنصفين.

فمنها أن التحقيق العميق، والنظر الدقيق، يُلجهنا بعد المشاهدات ورؤيه البينات، إلى أن نقرّ بأن لغة العرب أوسع اللغات، وأرفعها في الدرجات، وأعظمها في البركات، وأبرقها بالمعارف والنّكات، وأتمّها في نظام المفردات، وأبلغها في ترصفيف المركبات، وأدلهها على اللطائف والإشارات، وأكملها في جميع الصفات، من الله رب العالمين. وتوجد علوم كثيرة في لفّ أسمائها، وتلمع لطائف في تراكيبيها وطرق أدائها، وسنذكرها في مقاماتها لكشف غطائها،

وئيّن علوم مفرادتها، وفنون مركّباتها، لقوم مسترشدين. والآن ثبتت كمال نظام المفردات، فإنها أُولٌ علامٌ لغة هي أم اللغات ووحى من حكيم قويّ متيّن. فإنّا نرى أن فطرة الإنسان قد اقتضت من أُول الأوان، أن يُعطى لها مفردات فيها كمال البيان، كما هي كاملة من أحسن الخالقين. ونرى أن الفطرة الإنسانية والجبلة البشرية، قد كُملت بقوى مختلفة، وتصورات متنوّعة، وإرادات متقدّنة، وحالات متفرّقة، وخيالات متغيرة، وأخلاق متلوّنة، وجدّبات متضادّة، ومحاورات موضوعة، للآباء وللبنين، والأعداء والمحبّين، والأكابر والصاغرين، ثم انضمّت بها أفعالٌ تصدرُ من جوارح الإنسان، كالأيدي والأرجل والأعين والأذان، وكذلك كل ما يُطلّب بوسيلة هذه الأعضاء من علوم الأرض والسماء، وما يتعلّق بها كالخادمين. فلما خلق الله الإنسان بهذه القوى والاستعدادات، والأفعال والصناعات، والمقاصد والنيّات، اقتضت رحمته أن يكمل فطرته بعطاءٍ نُطِقَ يساوي الحاجات، ويُمْدّه في جميع الضرورات والمهام، ولا يتراكه كالناقصين. وكان تمثيله هذه الإرادات موقوفاً على لغة هي كاملُ النظام في المفردات، ليساوي ضمائرَ الإنسان وجميع الخيالات، ويعطي حلّ الألفاظ للطلابين. فهذه هي العربية، وخصّت بها هذه الفضيلة. هي التي أعطى الله له نظاماً كاملاً في المفردات،

وجعل دائِرَتِها مساوية بالضرورات، ولأجل ذلك أحاطت دقائقَ الأفعال، وأرأت تصویرَ الضمائر بال تمام والكمال كالمصوّرين. وإن أردنا أن نكتب فيه قصة، أو نُملي حكاية أو واقعة، أو نؤلّف كتابا في الإلهيّات، فلا تحتاج إلى المركبات، ولا نضطر أن نورد التركيبات مورد المفردات كالهائمين المتخطبين، بل يمكّننا نظامه الكامل في كل ميدان ومضمار، ونجد مفرداتها كحُلُلٍ كاملة لأنواع معاني وأسرار، ولا نجد لها في مقام كأبّكم غير مُيّن، وذلك لكمال نظامها، وعلوّ مقامها، وغزاره موادها، وكثرة أفرادها، وتناسبها ورشادها، واطراد اشتقاها، واتّحاد انتساقها، ولكونها متساويةً بآمال الآملين. وإن صحيفه القدرة، ومواد هذه اللهجه، قد صدّغنا كثوريًّا فلاحه، وتقابلنا كجدارٍ باحٍ، فانظُرْ كالمصريين.

ومن العجائب أنها كانت لسان الأميّين، وما كانوا أن يصقلوها كالعلماء المتبّرين، ولم يكن لهم فلسفة اليونانيين، ولا فنون الهند والصينيين، ومع ذلك نجدها أفصح الألسنة لتعبير خواطِرِ الحكماء، وإراعة صورِ آراءِ أهل الآراء، كأنها تصوّرُها كما يُصوّرُ في البطن الجنين. ومن فضائلها أنها ما مدتْ قط يدَ المسألة إلى الأغيار، وما زينها أحدٌ من الحكماء والأحبار، وليسَ عليها منةٌ أحدٌ من دون القادر الجبار. هو الذي أكملَها بيد الاقتدار، وصانَها مِنْ كل مكروره

في الأنظار، وعصمها من موجبات الملال والاستحسار، فهي رببة خدر الأزل كالبنات، وكقاصرات الطرف والقاتات، وهي حاملة بأحنة الحكم والنكات، لا تسمع صوتها في مجمع الماذين، والحكمة تبرق من أسرة وجهها بنور يَزِينُ. والله أحسن خلقها كخلق الإنسان، وأعطتها كل ما هو من كمال اللسان، وأعطتها حُسناً يُصيي قلوب المبصرين. فلأجل هذه الكلمات ووجازة الكلمات، تعصمنا عن إضاعة الأوقات، وتسعدنا إلى أبلغ البيانات، وتحفظنا عن فضوح الحَصَرِ، وتعصمنا في قيدِ ظباءِ المعاني والشَّصْرِ، فلا تَقْفُ موقفَ مندمة في ميدان، ولا تُرهق بمعتبة عند بيان، وتكشف علينا كلام رب العالمين. وإن القرآن والعربية كضرّتي الرَّحْمَى، والأمر من غيرهما لا ينْتَي، ومثلهما كمثل العروسين، فالعربية كزوجة كُمُلتْ في الحُسْنِ والزَّيْنِ.

ومن خواصّ العربية وعجائبها المختصة أنها لسان زَيْنٌ بـلطائف الصنع، ووضع فيها إيماء معاني متعددة بالطبع لفظٌ مفردٌ في الوضع، ليخفِّ النطقُ به حتى الوسع، ولا يحدُث ملالةُ الطبع، وهذا أمر ذو شأن مُمِدٌّ عند بيان، لا يوجد نظيره في لسان من ألسن الأعجمين، فلذلك تجد تلك الألسنَ غيرَ بريئةٍ من مَعْرَةِ اللَّكْنِ، وحالية من فضيلة اللَّسَنِ، ومع ذلك لا تَعْصِم عن الفضول في الكلام، ولا تكفي

مفرداتها في استيفاء أنواع المرام، ولا توجد فيها ذخيرة المفردات، سيّما مفردات مشتملة على المعارف والإلهيات ودقائق الدينّيات، بل لا تستطيع أن تؤلّف بفرداتها قصة، أو تكتب حكاية مبسوطة من أمور الدنيا أو الدين، فإنّها مسوخة مبدلة، وناقصة مغيرة، فلا طاقة فيها ولا قوّة، ولا نظام ولا عظمة، ولا كمال كعربي مبين، ولأجل ذلك لا يفوز أهلها غلبةً عند مقابلة، ويفرّ كزُملٌ عند مناضلة، ويرهق بمعتبة ومذلة، ويرى يومَ تَبِعَةٍ كالمخدولين.

وإنّها قد بلغت مُخارِمَ الجبال في علوّ الشأن وأنواع الكمال، وخرجتْ كفاراتِكِ ماضي العزيمة، وتنادي رجلَ الكريهة، فهل من مبارز في المخالفين؟ وهل في ندوةٍ حَيّهم أحدُ من الباسلين؟ وما هذا من الدعاوى التي لا دليل عليها، بل ترى عساكرَ البراهين لديها، كالطّوافين، وترى أنها قائمةٌ كجَحِيشٍ شَيْحَانَ، وتجُولُ بِمَفْصِلٍ وسِنان، فمن أرْثُه شُعاعاً طارت نفسه شَعاعاً، وسقطَ كميتين. وما كان للأعداء أن يأتوا ببرهان على دعواهم، أو يخرجوا من مثواهم، وإنّهم إلا كالمدفونين. وما ترى وجّهَ ألسنِهم بِبِشْرٍ يَشِفُّ، ونَصْرَةٍ تَرِفُّ، بل تراها كمَوْمَأةٍ ليس فيها مِنْ غيرِ رملٍ وحَصَاءٍ، ولا تجد فيها عينَ ماءً معين.

والذين مارسوا اللغات وفتشوها، واطلعوا على عجائب العربية ونظروها، ورأوا لطائف مفرداتها وزنوها، وشاهدوا ملحة مركباتها وذاقوها، فأولئك يعلمون بعلم اليقين، ويُقرّون بالعزم المتين، بأن العربية متفرّدة في صفاتها، وكماله في مفرداتها، ومعجّبة بحسن مركباتها، ومُصْبِبة بجمال فقراتها، ولا يبلغها لسانٌ من ألسن الأرضين. ويعلمون أنها فائرة كل الفوز في نظام المفردات، وما نَوْلُ لسانٍ أن يساوّيها في هذه الكمالات. وإنها كلمة جُرِّبت مراراً، وسُكِّنت أعداءً وأشراراً، وذادت كلّ من صالح إنكاراً، فإن كنت تنكر باصرار فأنت كمثلها من أغيار، ولن تقدر ولو تموت كجراد الفلا، أو تنتحر كالثوكى، فلا تكن من الجاهلين.

والأسف كل الأسف على بعض المستعجلين من المسيحيين، والغالين المعدين، أنهم حسّبوا اللسان الهندية أعظم الألسنة، ومدحوها بالخيالات الواهية، وفرحوا بالأراء الكاذبة، وليسوا إلا كحاطب ليلٍ، أو آخذٍ غثاءً من سيل، أو مفترفٍ من كدر لا ماءٌ معين. ألا ترى إلى اللسان الويديّة الهندية وغيره من الألسنة الأعجمية، كيف توجد أكثر ألفاظها من قبيل البري والنحت، وشتانٌ ما بينها وبين المفرد البحثي، فخداجٌ مفرداتها، وقلة ذات يدها وعسرُ حالاتها، يدلّ على أن تلك الألسنة ليست من حضرة العزة،

وَلَا مِنْ زَمَانٍ بُدُّوُّ الْبَرِّيَّةِ، بَلْ تَشَهُّدُ الْفَرَاسَةُ الصَّحِيحَةُ، وَيَفْتَحُ الْقَلْبُ وَالْقَرِيقَةُ، أَنَّهَا لُحْتَنْ عِنْدَ هَجُومِ الْمُضْرُورَاتِ، وَصَبَغَتْ عِنْدَ فُقدَانِ الْمُفْرَدَاتِ، لِيَتَخَلَّصَ أَهْلُهَا مِنْ مَحَالِبِ الْفَقْرِ وَأَنْيَابِ الْحَاجَاتِ، وَمَا خَطَرَتْ بِبَالِ إِلَّا عِنْدَمَا مَسَّتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا، وَمَا رُكِّبَتْ إِلَّا إِذَا حَثَّ الْوَقْتُ عَلَيْهَا، وَقَدْ أَقْرَرَ بِهَا زَمْرُ الْمَعَادِينِ. بَلْ يَحْكُمُ الرَّأْيُ الْمُسْتَقِيمُ، وَيَشَهِدُ الْعُقْلُ السَّلِيمُ، أَنَّ أَهْلَ تَلْكَ الْأَلْسُنَةِ وَالْلُّغَاتِ الْمُتَفَرِّقَةِ، قَوْمٌ تَطَاوِلُ عَلَيْهِمْ زَمَانُ الْغَيِّ وَالْخَذْلَانِ، وَمَا أَعْنَتْهُمْ يَدُ الرَّحْمَنِ، وَمَا وَجَدُوا مَا يَجِدُ أَهْلُ الْحَقِّ وَالْعُرْفَانِ، فَحَلَّوْا أَسْنَتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ لَا بِأَيْدِيِ الْفَيَّاضِ الْمَنَانِ، فَكَانَ غَايَةُ سَعِيهِمْ أَنْ يَنْحِتُوا بِإِزَاءِ مُفْرَدَاتٍ أَنْوَاعَ تَرْكِيَّاتٍ، فَفَرَحُوا بِحِيلَةِ فَاسِدَةِ مَصْنُوعَةٍ، وَبَعْدُوا مِنْ ثَمَارِ لَطِيفَةِ لَا مَقْطُوْعَةِ وَلَا مُنْوَعَةِ، نَافِعَةِ لِلَاكْلِينِ، فَبَدَتْ سَوَّعَتُهُمْ لِأَجْلِ مَنْقَصَةِ الْلُّغَاتِ وَأَنْتَقَاصِ الْمُفْرَدَاتِ، وَظَهَرَ أَهْمَمُهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ. وَكَانُوا يَحْمَدُونَ أَسْنَتَهُمْ بِصَفَاتٍ لَا تَسْتَحِقُّ بِهَا وَكَانُوا فِيهَا مُفْرِطِينَ، فَهَتَّكَ اللَّهُ أَسْرَارَهُمْ، وَأَذَاقَهُمْ اسْتِكْبَارَهُمْ بِمَا كَانُوا مَعْتَدِينَ. وَتَرَاهُمْ يَعَادُونَ الْحَقَّ وَالْفَرْقَانَ، وَلَا يَقْبَلُونَ الْمَحْمُودَ وَالْمَشْهُودَ وَالْعَيَانَ، وَلَا يَتَرَكُونَ الْحَقَّ وَالْعَدْوَانَ، وَيَمْشُونَ كَالْعَمَيْنِ، سِيمَا الْهَنْوَدَ، إِنَّ سِيرَتَهُمْ الصَّدُوْدُ، وَزَادُهُمُ الْعُنُودُ، وَهُمُ الْمَزْهُوْنُ. لَا يَخْشُونَ وَلَا يَتَوَاضَعُونَ، وَلَا يَتَدَبَّرُونَ كَالْخَاشِعِينَ، وَظَنَّوْا أَنْ لُغَتَهُمْ أَكْمَلُ الْلُّغَاتِ، بَلْ قَالُوا

إنها هي وحى رب السماوات، وكذلك رضوا بالخزعبلات، وخدعوا  
 قلوبهم بالمفتيّات، وما كانوا مستبصرين. وتجد لسانهم مجموعة  
 التركيّات، خاليةً عن نظام المفردات، كأنّ ربّهم ما قدر إلا على  
 تأليف المركبات، كما ما قدر إلا على تأليف الأبدان من الذرات،  
 وكان من العاجزين. وأمّا العربية فقد عصمها الله من هذه  
 الاضطرارات، وأعطتها نظاماً كاملاً من المفردات، وإن في ذلك لآية  
 للمتوسّمين. ولا يخفى على لبيب، ولا على منشئ أديب، أنّ الألسنة  
 الأخرى قد احتاجت إلى تركيّات شتّى، وما استخدمت المفردات  
 كعريّ مبين. وأنت تعلم أنّ للمفردات تقدم زمانٍ على المركبات،  
 فإنها مناطٌ افترارٌ ثغرٌ التركيب، وعليها توقف سلسلة التأليف  
 والترتيب، فالذى كان مقدّماً في الطبع والزمان، فهو الذي صدر من  
 الرحمن، وإليها ينحّل كلُّ مركّب عند ذوي العرفان، فهل ترى كما  
 نرى أو كنت من المحظوظين؟ ثم لا شك أنّ الألفاظ التي جُمعت عند  
 فقدان المفردات، وأقيمت مقامها عند هجوم الضرورات، قد نطقَتْ  
 بلسان الحال إنها ما أُبرّزتْ في بِرْتها إلا عند قحط المفردات والإهمال.  
 فإذا ثبت أنها تلفيقات إنسانية وتركيبيات اضطرارية، فكيف تُنسبُ  
 إلى البديع الكامل الذي يسلك سبيل الوجازة والحكمة، ويحبّ طريق  
 البساطة والوحدة، ولا يلتجأ إلى تركيّات مستحدثة كالغافلين؟ بل

هو الله الذي فطن من أول الأمر إلى معان مقصودة، فوضع بإزائها كل لفظ مفرد بأوضاع محمودة، وكذلك سلك سبيل حكمة معهودة، وما كان كالذي استيقظ بعد النوم، أو تنبأه بعد اللوم، بل وضع بإزاء كل طيفٍ معنوي لفظاً مفرداً ككوكب دُرّي ببيان جليّ، ألا تعرفه وهو أحسن الخالقين؟ أتظن أن الله نسي سبيل الحكمة، أو بطأَ به مانعٌ من هذه الإرادة، أو ما كان قادراً على وضع الألفاظ المفردة لإظهار المعانى المقصودة، فأجلأه عجزه إلى الكلمات المركبة، والتركيبيات المستحدثة، واضطرَّ إلى أن يلفق لها ألفاظاً باستعانة التراكيب، ويعتمد عليها لا على الطياع العجيب، ويسلك مسلك المتكلّفين؟ وأنت ترى أن بناءً عاقلاً ذا معرفة، إذا أراد أن يبني صرحاً في بلدة، أو قصراً في جردة، فيفطن في أول أمره إلى كل ضرورة، وينظر كل ما سيحتاج إليه عند سكونة، وإن كان يبني لغيره فينبهه إنْ كان في غفلة، ولا يعمل عمل العمين، بل يتصور في قلبه قبل البناء كل ما سيضطر إليه أحد من الثناء، كالحجرات والرف والفناء، والمداخل والخارج للسكناء، ومنافذ النور والهواء، وبمحالس الرجال والنساء، وبيت الخبز وبيت الخلاء، وبيت الأضياف والواردين من الأحباء، ومقام السائلين والفقراء، وما يحتاج إليه في الصيف والشتاء، وكذلك لا يُغادر حاجة إلا ويبين لها ما يسدّ

ضرورةً، حجرةً كان أو علة، سلماً كان أو مصطبة، أو ما يسرّ القلب كالبساتين. فالحاصل أنه يصر في أول نظره كلّ ما ستؤول إليه لوازم أمره، ولا ينسى شيئاً سيطّله أحدٌ من زُمره، ويُتمّ الصرح كالمتذمّرين.

وأمّا الجاهم الغبي، والقلب المخطي، فلا يرى خيره وشرّه إلا بعد البناء، ويسلك مسلك العشواء، ولا يرى المال في أول الحال، ولا ينظر إلى ما سيحتاج إليه في بعض الأحوال، فيبني من غير تقدير وتنسيق وترتيب، ولا يتدبّر كذي معرفةٍ لبيب، ولا يفطن إلى ما يلزم لبناءه، إلا بعدما سكّنه وجرب مثواه، ووجده ناقصاً ورآه، فيشعر حينئذ أنه لا يكفي لبناءه، فيتأمّل برأيته بعد خبرته، وييكي مرّة على فقدان مُنيته، وأخرى على حُمقه وجهاته وضياعه فضته، وتطلّع على قلبه نارُ حسرته، بما لم يدُرِ في أول الأمر مآلَ خطّته، كالعاقلين، فيتدارك ما فُرط منه بعدما رأى التفرقة والشتات، متأسّفاً على ما فات، وباكياً كالمتندّمين.

فهذا الذهول الذي يخالف العقل والحكمة، وبيان القدرة والمعونة الكاملة، لا يُعزّى إلى قديرٍ الذي هو ذو الجلال والقوّة، وخيرٍ الذي يحيط الأشياء بالعلم والحكمة. سبحانه، هو يعلم الخفي والأحفي، والقريب والأقصى، ويعلم الغيبَ وغيبَ الغيبِ، وفِعله

مُنْزَهٌ عن المُعَرَّةِ والعيَّبِ، وإنَّه لا يُخْطِئُ كالنَّاقِصِينَ. اُنْظُرْ إِلَى مَا خَلَقَ مِنْ قَدْرَةِ كَامِلَةٍ، هَلْ تَرَى فِيهِ مِنْ فَتُورٍ أَوْ مِنْقَصَةٍ؟ ثُمَّ ارْجِعِي الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فَتُورٍ فِي خَلْقِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟ فَكَفَاكَ لِفَهْمِ الْحَقِيقَةِ مَا تَرَى فِي صَحِيفَةِ الْفَطْرَةِ، وَلَنْ تَرَى اخْتِلَافًا فِي خَلْقَةِ حَضْرَةِ الْأَحَدِيَّةِ. فَهَذَا هُوَ الْمِعْيَارُ لِمَعْرِفَةِ الْأَلْسُنَةِ، فَخُذْ الْمِعْيَارَ وَاعْرِفْ مَا أَنَارَ، وَاتَّقْ اللَّهَ الَّذِي يُحِبُّ الْمُتَقِينَ، وَاسْتَفِقْ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَالِينَ.

وَلَا يَرِيكَ مَا تَجِدُ فِي الْلِسَانِ الْهَنْدِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَلْسُنَةِ قَلِيلًا مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُفَرَّدَةِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ مِنْ دَارِهِمِ الْخَرْبَةِ، وَلَا مِنْ عَيْتِهِمِ الْمَزَّقَةِ، بَلْ هِيَ كَالْأَمْوَالِ الْمُسَرَّوَةِ، أَوِ الْأَمْتَعَةِ الْمُسْتَعَارَةِ فِي بَيْتِ الْمَسَاكِينِ. وَالدَّلِيلُ عَلَيْهَا أَنَّهَا خَالِيَّةٌ عَنِ اطْرَادِ الْمَادَّةِ وَغُزَارَهَا الْمُنْتَسَقَةُ مَعَ فَقْدَانِ وَجْهِ التَّسْمِيَّةِ، وَلَا يَتَحَقَّقُ كُنْهُهَا إِلَّا بَعْدِ رَدِّهَا إِلَى الْعَرَبِيَّةِ. وَلَا يَخْدَعُكَ قَلِيلُهَا فِي تَلْكَ الْلِغَاتِ، فَإِنَّهَا لَا يَوْصِلُ إِلَى الْغَایِيَاتِ، وَلَا تَكْشِفُ عَنِ سَاقِ مَعَانِي الْمُفَرَّدَاتِ عَلَى سُبُلِ اطْرَادِ اشْتِقَاقِ الْمُشَتَّقَاتِ، وَبَيْشِ مَعَادِنِ الْكَلِمَاتِ، بَلْ هِيَ تَفْهِيمٌ سَطْحِيٌّ لِخَدْعِ ذُوِيِّ الْجَهَلَاتِ وَقَوْمِ عُمَيْنٍ. وَكَلِّمَا يُرَدُّ لِفَظُّهُ إِلَى مَنْتَهِيِّ مَقَامِ الرَّدِّ، وَيُفْتَشَ أَصْلُهُ بِالْجَهَدِ وَالْكَدْ، فَتَرَى أَنَّهُ عَرَبِيٌّ مُمْسُوَّخٌ، كَأَنَّهَا شَاهٌ مَسْلُوَّخٌ، وَتَرَى كُلَّ مَضْبَغَةٍ مِنْ أَبْدَاءِ عَرَبِيٍّ مَبِينٍ.

ولا نذكر عبرانية ولا سريانية في هذا الكتاب، فإن اشتراك ذيئنك اللسانين مسلمٌ عند ذوي الألباب، من غير الامتراء والارتياب، وأنهما محرّفان من العربية الخالصة، مع إبقاء أكثر القوانين الأدبية والتراتيب المناسبة، وإنهم كالسارقين. وكانت دار العربية آنئ من حديقة زهرٌ وخميلة شجرٌ، ما رأى أهلها حرّ الهوى ولا حرّق الجوى، ذات عقيانٍ وعقارٍ، وغربٍ ونضارٍ، وحدائق وأنهارٍ، وزهرٍ وثمارٍ، وعيديٍ وأحرارٍ، وجُرُدٍ مربوطة، وجِدَّةٍ مغبوطة، وعماراتٍ مرتفعة، ومجالسٍ منعقدة مزينة، ثم انتشرت عقود الزحام من الفساد، فسافروا وأخذوا ما راج من الزاد، واحتمل كُلُّ بحسب الاستعداد، وركبوا متن مطاييا التفرقة والتضاد، وبدلوا الصور بترك السداد، حتى جعلوا العدقَ جريمةً، واللُّعلَ وثيمةً، والوليمةَ وظيمةً، والحسنةَ جريمةً، والضليعَ حماراً، والروضةَ مِقْفاراً، وغادروا بيتَ الفصاحةِ أنقى من الراحة، وأبعدَ من التلذذ والراحة، وما بقيتْ حدائقُها ولا رَكِيْتها، ولا مروجُها ولا نضرتها، وما برح يمطر عليها مطرُ الشدائِد، وتتلقّاها يدُ النوائب بالحصائد، حتى رُميَ متابعاًها بالكساد، وبُدُلَ صلاحها بالفساد، فأصبحت دارها كالمنهوين، كان اللصُّ أبلغَها، أو الغريم قعَطها، وكسح بيتهما وخلّى سقطَها، فصارت كالمعترّين. وأنت سمعت أن العربية نزلت في بُدُوّ الفطرة، وجاءت من حضرة الأحادية،

ثم إذا تحرّم ذلك القرن، فطرّى على أذيالها الدرنُ، فالعربيةُ وغيرها  
كوسخ العربية وفضلة هذه المائدة، والعربية أول دارٌ لإرضاع الفطرة  
الإنسانة، وأول خرسٍ لتغذية أمّ البرية من خير المطعمين، وإليه  
أشار معطي القياس والحواس ودافعُ وساوس الخناس: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ  
وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَّكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾<sup>❖</sup>، فأوْمَى إلى أن  
العربية سبقت الألسنة، وأحاطت الأمكنة، وهي أول غذاء للناطقين.  
فإنّ البيت لا يخلو من مجمع الناس، والمجمع يحتاج إلى الكلام لدفع  
الحواج والاستيناس، فإنّ العاشرة موقوفة على الفهم والتفهيم، كما  
لا يخفى على الزكيّ الفهيم. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ  
مَكَانَ الْبَيْتِ﴾<sup>◎</sup> دليلٌ على كون مكة أولَ العمارات، فلا تسُكُّتْ  
كالميّت وكنْ من المتيقظين.

فحاصِل المقالات أن مكة كانت أولَ العمارات، ثم خربتْ من  
الحوادث وسُيل الآفات، فلزم ذلك البيان أنّ العربية كانت أولَ كلّ  
ما كانَ، وعلّمها الله آدمَ وكمّل بها الإنسانَ، ثم حُرّفتْ هذه اللغة  
الأصلية، ومسحت الكلمات النورانية، وفات النّظامُ الكامل الموزون،  
وضاع الدُّرُّ المكنون، وخلفَ مِن بعدهم خَلْفٌ تباعدوُ عن العربية،

❖ آل عمران: ٩٧

◎ الحج: ٢٧

ومسخوها وبدلوها حتى جعلوها كالألسنة الجديدة، وما بقي إلا قليل يتكلمون بها من بعض الأدميين، والآخرون حرفوا كلِّمَها عن مواضعها، وبعْدُوا جواهرها عن معادها وأماكنها، فصارت ألسنة جديدة في أعين الغافلين، ونُضيَّ منها خلعة حُلُلها النفيسة، وجعلت عاريَ الجلْدَة باديَ العورة، تَبَذُّلُها أعينُ الناظرين، فلأجل ذلك تراها ساقطةً عن النظام والقواعد الطبيعية، ومتفرقةً غيرَ منتظمة كخشب الفلا المتبددة، وتشاهد أنها تائهة لا ذرَى لها ولا دار، ولا سِكَّة ولا جوار، وترى أن مفرداها متبددة لا أنسابَ بينها، وعاريةً أبدت وصْمتها وشَيَّتها؛ وذلك بما ضاع النظام وما بقي القِوام، ورعتها الأنعام، فترى كأنها أرض بذيعة، أو مَوْمَأَة مخوفة مُجنة تَبَذُّلُها عينُ المحقين، وما حسُنَ الآنَ شائِها، وما أبدأً صبياًها، ولكن الظالمين يخدعون الجاهلين. أضاعت نسبياً متماثلة، وأقداماً متشابهة، فصارت كأناس متفرقة الآراء، أو أوباشٍ مختلفة الأهواء، متغاييرين غير متحدين، فكان بعضُها على رباوة متخصِّراً بِهَراوة، وبعضُها في وهاد ساقطاً كجماد، وبعضُها فقدتْ أُسَارِيرَ وجه التسمية، كأنه أُغميَ عليها أو أخذَتها مرضُ السكتة أو كانت من المَحْقُوِّين، وبعضُها بدا كريَّة الشكل كثِيرَ الاختلال، كأنه أبدى كالأطفال حتى بَذَأْتها أعينُ الناظرين، والبعض لُفْع وجهه بِرِداءٍ، ونُكِّرَ شخصُه لحياءٍ، والبعض

الآخر صَبَغَ الأطمارَ وَدَلَسَ، وَأَرَى كَأَنَّهُ تَطْلُسَ. وَمِنْهَا الْفَاظُ بَقِيَتْ عَلَى صُورِهَا الْأَصْلِيَّةِ، وَمَا غَيَّرَ وَجْهَهَا حُرُّ هُوَاجِرُ الْغُرْبَةِ، وَمَا زَلَّ أَقْدَامَهَا إِعْصَارُ التَّفْرِقَةِ، بَلْ بَقِيَ لَهَا تَشْرُّقُ تَنْمُّ نَفْحَاتُهُ، وَتُرْشِدُ إِلَى رَوْضِ الْحَقِّ فَوْحَاتُهُ، وَتُعْرَفُ بِتَأْرِجِ عَرْفَهَا وَمَنَاعَةِ غُرْفَهَا، وَتُصْبِي الْقُلُوبَ كَجَمِيلٍ خَدِيْدِينِ. بِيَدِ أَهْمَّهَا أُخْرِجَتْ مِنَ الْمَنَازِلِ الْمُقَرَّرَةِ، وَبُعْدَتْ مِنَ الْأَوْطَانِ الْمُوْرُوثَيَّةِ، وَبُعْدَتْ مِنَ الْأَتْرَابِ، وَهَيَّلَ عَلَيْهَا الزَّوَائِدُ كَهَيْلِ التَّرَابِ، وَأَخْفَيَتْ كَالْمِيَّتِينِ، بَلْ دُفِنَتْ كَالْمَوْعِدِ، فَمَا مَادَهَا أَحَدُ كَالْوَدُودِ، ثُمَّ رُدَّتْ عَلَيْهَا عَهْدُ تَذْكَارِ الْوَطَنِ، وَالْحَنِينُ إِلَى الْعَطَنِ، فَاسْتَعْدَدَتْ لِتَقْوِيْضِ خَيَامِ الْغَيَّبَةِ، وَأَسْرَجَتْ جَوَادَ الْأَوْبَةِ، بَعْدَمَا كَانَتْ كَالْإِلَمَّةِ، وَكَانَتْ كَرْفَاقِ مِسْتَعْدِيْنِ، غَيْرَ أَهْمَّهَا كَانَتْ مُحْتَاجَةً إِلَى رَجُلٍ يَرْتُمُّهَا فِي الْمَسِيرِ، وَمَا كَانَ سَبِيلُ مِنْ دُونِ اسْتَصْحَابِ الْخَفِيرِ، فَأَتَيْنَاهَا وَأَخْدَنَاهَا كَأَحْدَدِ الْوَارِثِ مَتَاعَ الْمِيرَاثِ، وَبَعْثَانَاهَا مِنَ الْأَجْدَاثِ، بَعْدَمَا سُمِعَ نَعِيْهَا مِنَ الزَّمْنِ النَّثَاثِ، فَهِيَ بَعْدَ أَمْدِ رَأَتِ كِنَاسَهَا، وَوَافَتْ أَنَاسَهَا، وَنُقْلَتْ إِلَى قَصْرَهَا، بَعْدَمَا حَصَّلَهَا الشَّدَائِدُ تَحْتَ أَسْرَهَا، وَكَأَهْمَّهَا كَانَتْ كِإِلْفِيْ يُفْقَدُ، وَيُسْتَرْجَعُ لَهُ بَعْدَ مَنَاحَةٍ تُعَقَّدُ. فَأَخْرَجْنَاهَا كَنْعَشِ الْمَيْتِ، أَوِ الْغَلامِ الْآبَقِ مِنَ الْبَيْتِ، أَوِ كَطَّيْبِ الْأَعْرَاقِ الْلَّاحِقِ بِالْفُسَاقِ، أَوِ النَّسِيبِ الْمَهْجُورِ مِنَ الْأَقْارَبِ، أَوِ الْابْنِ الْغَائِبِ الْهَارِبِ، أَوِ الْأَطْفَالِ مِنْغَمِسِينِ. فَمِنْهَا مَا لَمْ يَرَ اثْلَامَ حَبَّةٍ فِي

زمنٍ فُرقةٍ متطاولة، وأزمنةٍ بعيدةٍ مخوفةٍ، وقفلَ كما سافرَ بصحةٍ وسلامةٍ، وصلاحٍ وعافيةٍ، ومنها ما غيرها حَرُّ السَّقَام، حتى بلغَ إلى الاختزام، وصارت كالجنائز، بعدما كانت من أهل الجوائز، وظهرتْ بوجهٍ مسنونٍ، بعدما كانت كُدُرٌ مكونٌ، وذهبَ حسنُها وبهاؤها، وغابَ نورُها وضياؤها، وتراءَتْ كشيخٌ مسلوبٌ الطاقة، بعدما كانت كغِيدٍ مليحٌ الرشاقة، أو كضليعٍ لذيدٍ السياقة، أو كجَمَازٍ لا يلحقها العناء، ولا تُواهقها وجْناءُ. ولا يخالف هذا البيان، إلا الذي جهلَ الحقيقةَ أو مانَ، فلا شكَ أنَّ الحقَ أَبْلَجَ، والباطلَ لَجْلَجَ، وشنَّ على الباطل عسْكُرُ الحقِ واليقينِ.

هذا شأن مفردات العربية، وأمّا مركّبها فهي أرفعُ شأنًا عند أهل البصيرة، فإن المِسْكُ واللُّؤْلُؤُ إذا خُلِطَا لغرضٍ من الأغراض، فلا شكَ أنَّ هذا المركبَ أشدَّ وأقوى لدفعِ الأمراضِ. وأنَّ تعلمَ أنَّ مركبات النبات قد تحدُثُ فيها كيَفِيَّةٌ خارقةٌ للعاداتِ، نافعَةٌ لكثيرٍ من الآفاتِ، فكيفَ ترَكِيبُ مفرداتٍ قد علا شأنُها، وأشْرَقَ برهانُها، وأعْجَبَ الخلقَ لمعانُها، فإنَّها نورٌ على نورٍ، ومفْتَاحٌ لسرِّ مستورٍ، وآيةٌ عظيمةٌ للمسترشدينِ.

والسرُّ في عظمةِ مركباتِ العربيةِ، أنها رُكِبتَ من المفرداتِ المباركةِ، التي تُوجَدُ فيها غزارَةُ المادَّةِ والنظامُ الكاملُ على سبيـلـ

الحكمة، فتولّد في مرّكّباتها معاني كثيرة بتأثير المفردات، ثم يإدخال اللام والتنوينات، وبكشحٍ مخصرٍ من لطائف الترتيبات. وأمّا لغات أخرى وألسنة شتّى، فستعلم عُجَّرَها وُجَّرَها، وسنبدِّي لك حَصَّاتَها وحَجَّرَها، وندعو إلى الحق قوماً منصفين. إنما ألسنة ما أُعْطِيَ لها بيان ولا لمعان، إلا غَمْعَمة ودخان، ولذلك أرداً لُّظُّهُر على كل مستطلعٍ دخيلةً أمرها وحقيقة سرّها، وكسوفَ قمرها، ل تستبين تصلُّفُ الكاذبين. فإن كنتم لا تؤمنون ببراعة العربية وعَزَّازَتها، ولا تُقرُّون بعظامة جَمَّازَتها، فأُرُونِي في لسانكم مثلَ كمالاتها، ومفرداتِ كمفرداتها، ومرّكّباتِ كمرّكباتها، و المعارفَ كمعارفها ونكباتها، إن كنتم صادقين. ولا حياة بعد الخزي يا معاشر الأعداء، فَقُومُوا إن كانت ذرّة من الحياة، أو اجْنَعوا في غَيَّابَةِ الْخَوْقَاءِ، وموتوا كالمُتَدَمِّينِ. وإن كنتم تنهضون لل مقابلة، فإن مُجِيزَكم خمسةَ آلاف من الدرّاهم المروّجة، بعد أن تكملوا شرائط هذه الدعوة، ويشهد حَكْمَانِ بالحلف عند الشهادة، ليتّم حجّي عند النحّارير، ولا يبق نَدْحَةً المعاذير، وهذا على غرامة لو كنتُ من الكاذبين. فقوموا لأنْخذ هذه الصلة، أو لحماية لغاتكم الناقصة، إن كنتم حامين. واجْمَعوا عينَ شريطيَّيْ أين تشاءون، إن كنتم ترتابون أو تخافون، وإني أقبل كل ما تطلبون، وأكتب كل ما تستمئتون، وأُبْضِعُ في كل ما تسألون،

لعلكم تطمئنون بها ولعلكم تستيقنون، وأفعل كل ما تأمرون، لو أمرتم منصفين. وما أريد أن أشقّ عليكم وما كنتُ من المترّعين، ستجدوني إن شاء الله من المقطفين.

وإني أرى أن الألسنة ستُرْمُ، والوساوس تُجذَع، والحجّة تتمّ، ويفرّ الأعداء مشفقين مما في أيدينا ومرتعدين. وإنما ملاقوهم بعون الله ذي الجلال، ولو فرّوا على لاحِقَةِ الآطَال، ثم مُفْرُوهم مُجْهِرين. ولا مناص لهم ولو نزَوا في السّكاك، إلا بعد سواد الوجه والاحليلاك. وإذا أَشْرَعْنَا الرمحَ على العدا، وأرينا المُدِى، وعَبَطْنَا أَفْرَاسَ الرَّدَى، فترى أئمَّهم يُيدُون نواجذهم غيرَ ضاحكين.

وما كتبتُ من عندي، ولكن أهمني ربِّي، وأيّدَني في أمري، فناتَّ نفسي إلى أن أُفْضَّ ختم هذا السرّ، وأُرِيَّ الخلق ما أراني ذو الفضل والنصر، وإنه ذو الفضل المبين.

وحاصل ما كتبنا في هذه المقدمة أن العربية أُمُّ الألسنة، ووحيُ الله ذي الحمد والعزّة، وغيرها كرشٌ من هذه المطرفة القاشرة، وما لها سَبَدٌ ولا لَبَدٌ إلا من هذه اللهجة، وإن العربية تقسم الأمور وضعًا كما قسمها الله طبعًا، وفي ذلك آيات للمتوسّمين. وإنما تحرى في كل سككٍ بهذا الاشتراط، وتتجاهي عن الاستطاط، ونَزَّهَها الله عن ضيق الربّع، ووَسَعَ مَرْبَعَها لأضياف الطبع، فدعتْ ضيوفَ الفطرة إلى

القرى ومطائبِ ما تُشتهي، وأثبتتْ أنها من الممولين المعطين. فلا تَمْلِئُ إلى زَبُونٍ، ولا تُعْضَلُ على صفقَةِ مغبونٍ. أتستبدلُ الذي هو أدنى بالذِي هو خيرٌ، ففَكِّرْ ساعَةً يا عَارَ العَيْرِ، واطلبْ سبلَ المُوقَفينِ.

واعلمُ أنها خفيرٌ إلى العلومِ النُّحَبِ، مِنْ غَيْرِ الْوَجْهِيِّ والْتَّعْبِ، فَمَنْ قَصَدَهَا فَقَدْ ذَهَبَ إِلَى الْذَّهَبِ، وَمَنْ باعَهَا بِالْمُهْجَرِ فَقَدْ رَضِيَ بِإِيَّاشِ الْمُهْجَرِ، وَهُوَ فِي هُوَّةِ السَّافَلِينَ. وَإِنَّهَا غَانِيَةٌ زَيَّنَتْ نَفْسَهَا بِكَمَالِ النَّظَامِ، وَبَحَلَّتْ بِالْحَسْنِ التَّامِ، وَلِكُلِّ سَائِلٍ قَامَتْ بِالْإِجَابَةِ، حَتَّى ثَبَّتَ ثَرْوَتُهَا وَانْجَابَتْ غَشاوَةَ الْإِسْتَرَابَةِ، وَاعْتَقَبَتْ دَوَاعِيَ الْطَّبَعِ، وَوَسَّعَتْ لَهَا فِنَاءَ الرَّبِيعِ، وَحَلَّتْ بِكُلِّ مَا حَلَّ تَقْسِيمُ طَبَعِيٌّ، بَلْ حَمْلَتْهُ كَمَا يَحْمِلُ أَوْزَارًا مَهْرِيًّا، وَطَابَقَتْ حَتَّى أَعْجَبَ النَّاظِرِينَ. فَهِيَ شَجَرَةٌ مَبَارَكَةٌ أَغْصَانُهَا كَالْبَرِيدِ، وَأَصْوَلُهَا كَالْوَصِيدِ، وَمَوَادُهَا كَالْيَقْطَنِينِ. وَإِنَّا لَا نَسْلِمُ أَنْ كَمَالَ نَظَامِهَا يَوْجَدُ فِي غَيْرِهَا، أَوْ يَلْغُغُهَا لِسَانٌ فِي سِيرِهَا.

نَعَمْ، نَسْلِمُ أَنْ كُلَّ لُغَةٍ مِنَ الْلُّغَاتِ تَشْتَمِلُ عَلَى قَدْرِ مِنَ الْمَفَرَّدَاتِ، لَكِنَّهَا نَاقِصَةٌ كَالْبَيْوَتِ الْمَنْهَدِمَةِ الْخَرِبَةِ، أَوْ كَالْقُفَّةِ الَّتِي يَئِسَّ أَهْلُهَا مِنَ الزَّهْرِ وَالثَّمَرَةِ، وَلَا تَرَى دُهُومَ الْمَفَرَّدَاتِ فِي تِلْكَ الْأَلْسِنِ الْمُحَارَفَةِ الْمَقْلُوَبَةِ، إِلَّا قَلِيلًا غَيْرَ كَافِ لِلْمَهَمَّاتِ الْمَطْلُوبَةِ. وَأَنْتَ سَمِعْتَ أَنَّهَا كَانَتْ عَرَبِيَّةً فِي أَوَّلِ الْأَزْمَنَةِ، ثُمَّ مُسْخَتْ فَبَدَأَتْ بِأَقْبَحِ الصُّورَةِ، فَلَذِلِكَ تَرَاهَا مُنْتَنِيَةً كَالْجَيْفَةِ، وَخَاوِيَ الْوِفَاضِ كَأَهْلِ الذَّلِّ وَالْهَزِيمَةِ.

وبحد أنها ألسنةٌ بادية الذلة، ليس بيدها غزاره الماده، ولا دولة الاشتغال ووجه التسمية، ولصقت ألفاظها بمعانيها كفتين، وإنما بتلادها لا تُوفي النظام، ولا تُكمل الكلام، وما كان لأهلها أن يكتبوا بها قصه، أو يُمْلوا حكاية مبسوطة، بحيث أنْ تُواحد القصصُ نظام المفردات، وتنقاب التقسيم الطبيعي في جميع الخطوات. وإنْ هذا حقٌ وليس من الترهات، ولأجله كتبنا في العربية هذه العبارات، وقدمنا هذه المقدمة كالكماء، لنقطع عرقَ الخصومات، ولعل العدا يتفكرون في حُلّها، أو يأتون بأسنها من مثلها، إن كانوا صادقين.

وقد سمعتم أن مفرداتها تُواضيَخُ نقوشَ تقسيم الفطرة، وتعطي كلَّ ما أُعطيَ عند التقسيم الطبيعية، وتضع كلَّ لفظ في الموضع التي طلبُها الضرورة الداعية، أو اقتضتها الصفاتُ الإلهية، ولا تمشي كالتأهين. وترى فروقَ الكلماتِ كما أرته فروقَها دواعي الضروراتِ، وتُظهر في نظام المفردات كلَّ ما أظهرَ القسّامُ في مِرآة الواقعاتِ، فكذلك نطلب من المخاصمين. وما قلنا هذا القول كصغير اللاعبين، بل أرينا كلها كالمحققين، وأثبتنا أنَّ العربية قد وقعتْ كرجلِ رحيبِ الْبَاعِ، متناسبةً الأعضاء موزونَ الطياع، مطلعةً على ذات صدر الفطرة، وحاملَ فوائدها كالمطية، فإنْ كنتم مِنْ خيل هذا الميدان، أو لِلسانِكم كمثلها يَدَانِ، فاثروا بها يا

معشرَ أهل العداوَن وحزَبَ المتعصِّبِينَ، وإنْ لمْ تفعُلُوا، ولنْ تفعُلُوا،  
فاثقُوا اللهُ الذِّي يُخْزِي الْكَاذِبِينَ.

وَالآن نكشفُ عَلَيْكُمْ سِرَّ فَرْوَقِ الْكَلْمَاتِ، لعلَ اللهُ يهديكمْ إِلَى طرقِ الصوابِ والثباتِ، أو تَكُونُونَ مِنَ الْمُتَفَكِّرِينَ. فَاعْلَمُوا أَنْ فَرْوَقَ الْكَلْمَاتِ تَتَّبِعُ فَرْوَقًا تَوْجِدُ فِي الْكَائِنَاتِ، وَكَذَلِكَ قَضَى أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ. وَأَمَّا الْفَرْوَقُ الَّتِي تَوْجِدُ فِي خِلْقَةِ الْكَائِنَاتِ، وَتَتَرَاءَى فِي صَحْفِ الْفَطْرَةِ كَالْبَدِيَّاتِ، فَنَكْشُفُ عَلَيْكُمْ نَمُوذْجًا مِنْهَا فِي خِلْقَةِ الْإِنْسَانِ، لِعَلَّكُمْ تَفَهَّمُ الْحَقِيقَةَ كَذُوِيِ الْعِرْفَانِ، أو تَكُونُونَ مِنَ الْمُطَالِبِينَ. فَانظُرُوهُمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا قُلْبَهُ فِي مَرَاتِبِ الْخِلْقَةِ، وَأَخْرَجَ إِلَى حَيْزِ الْفَعْلِ مِنَ الْقُوَّةِ، وَأُعْطِيَ صُورًا فِي الْمَحَالِيِّ الْطَّبِيعِيِّ، وَقَفَّا بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْتَّمَايِزِ وَالْتَّفْرِقَةِ، فَجَمِعُتْ هُنَّا مَدَارِجُ تَقْتِضِي لِأَنفُسِهَا الْأَسْمَاءَ، فَأَعْطَتْهَا الْعَرَبِيَّةُ وَأَكْمَلَتِ الْعَطَاءَ، كَالْأَسْحَيَاءِ الْمُتَمَوِّلِينَ.

وَتَفْصِيلُهُ أَنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ، فَبَدَا خَلْقَهُ مِنْ سَلَالَةِ طِينٍ مُطَهَّرٍ مِنَ الْأَدْرَانِ، فَلَذِلِكَ سَمَاهُ آدَمَ عِنْدَ الْخُطَابِ وَفِي الْكِتَابِ، لِمَا خَلَقَهُ مِنَ التَّرَابِ، وَلِمَا جَمَعَ فِيهِ فَضَائِلَ الْعَالَمِينَ. وَكَذَلِكَ خُمُرٌ فِي طِينِهِ أَنْسَانٌ: أَنْسٌ مَا خُلِقَ مِنْهُ وَأَنْسُ الْخَالِقِ الرَّحْمَنِ، كَمَا يُوجَدُ أَنْسُ الْأُمُّ وَالْأَبِ فِي الصَّبِيَّانِ، فَدُعَاهُ بِاسْمِ الْإِنْسَانِ، وَهَذَا مَبْنَىٰ عَلَى التَّشْتِيَّةِ مِنَ الْمَنَانِ، لِيَدِلَّ لِفَظُ الْأَنْسَيْنَ عَلَى كُلِّيِ الصَّفَتَيْنِ إِلَى انْقِطَاعِ الزَّمَانِ

ويكون من المذكرين. ثم بُدَّلَ قانون القدرة بإذن الله ذي العزة والحكمة، وخلقَ الإنسان بعد تغييرات في أرحام أمهات، فُسُميَ التغيير الأولى ماءً دافقاً ونطفةً، والثاني الذي يزداد فيه أثر الحياة عَلَقَةً، والثالث الذي زاد إلى قدر المضْع شدَّةً وضاهى في قدره لقمةً، فُسُميَ لهذا مُضْغَةً، والرابع الذي زاد من قدر اللقمة، ومع ذلك بلغ إلى منتهى الصلابة وأودعها الله حِكْمَةً عظيمة خلقةً ونظاماً، فسماها عِظاماً، بما بلغت العظمة وزادت شرفاً وكَمَّا ومقاماً، وعما رُكِّب بعضها بالعظام من رب العالمين. والخامس اللحم الذي زاد عليها كالحُلْة، وصار سببَ كمال الحسن والزينة، فُسُميَ لحماً بما لُوحِمَ بالعظام الصلبة، وصار بها كذوي اللُّحْمة، والسادس خلقٌ آخر وسُميَ نفساً، لنفاستها ولطافتها، وسراريتها في الأعضاء وعزّتها، وسُميَ جمِيعُها باسم الجنين، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم إذا خرج الجنين من بطن الأُمّة، وتولَّد بإذن الله ذي القدرة، فُسُميَ وليداً في هذه اللهجة. ثم إذا صبا إلى ثدي الأم للرضاع، فُسُميَ صبياً ورضيعاً إلى مَدِي الإرضاع. ثم بعد الفطام سُميَ فطيمياً وقطيعاً في هذا اللسان. ثم إذا دبّ ونما وأرى أكثر آثار الحيوان، فُسُميَ دارجاً في ذلك الزمان. ثم إذا بلغ طوله أربعة أشبار، فهو رُباعيٌّ عند أولي أبصار. وإذا بلغ خمسةً فهو خُماسيٌّ. وإذا سقطت

رواضعه فهو متغير عند العرب، وإذا نبت بعد السقوط فهو مُتغِّرٌ عند ذوي الأدب. وإذا تجاوز عشر سنين، فهو متزرع عند العربين. وإذا شارف الاحتلام، وكرَبَ الماءُ لِيُمْطِرُ الجَهَامَ، فهو يافعٌ ومراهق قد بلغ البلوغ التام. وإذا احتلم واجتمعتْ قوته وكملت طاقته، فهو حَزَوْرٌ. ثم من الثلاثين إلى الأربعين شابٌ فَرِحٌ مسورو. ثم بعد ذلك كَهْلٌ إلى أن يستوفي الستين. ثم بعد ذلكشيخ، ثم خَرْفٌ مَفَنَّدٌ، ومن المستضعفين. وكذلك بإزاء كلٍّ حَصَّةٌ عمرٌ اسْمٌ على حِدةٍ في عربي مبين. وإذا مات فهو المتوفى الذي يختصم في لفظه حزبُ الجاهلين. وكذلك كل ما تحقق في الإنسان طبعاً، يوجد في العربية وضعاً، وكل ما ترى في الحسّ والعيان، تجد بإزائه لفظاً في هذا اللسان، ولا تجد نظيره في العالمين. وأيّ حجّة أكبر من هذا لو كتمت مبصرين. فتأمّلْ تأمّلَ المنتقدِ، وانظرْ بالمصباح المتقدِ، واحلّلْ محلَّ المستبصرين. وإن كنتَ تقترح أن تسمعَ ميني في اشتراك الألسنة، فكفاك لفظُ الأُمّ والأُمّة، فإن هذا لفظُ تشارك فيه اللسانُ الهندية وال العربية، وكذلك اللسان الفارسية والإإنكليزية، بل كُلُّها كما تشهد التجربة الصحيحة، فانظرْ كالمتقدّدين. وقد ظهر مِن وجه التسمية أن هذا اللفظ دخل في الألسن الأعجمية من العربية، فإن التسمية الحقيقة لا توجد إلّا في هذا اللسان، وأما غيره فلا يخلو من التصنيع في البيان،

فإن من شأن التسمية الحقيقة التي هي من حضرة العزة، أن لا تنفك بزمن من الأزمنة الثلاثة، وتكون للسمى كالعرض اللازم، وأن تُجاهِّه في هذه النشأة، ولا يفرض فرضٌ فارضٌ كونها في وقتٍ من الأمور المنفَّكة، ولا تكون كالأمور المستحدثة المصنوعة، ولا توجد فيها ريحُ التصنيعات الإنسانية، ويُقرَّ مَن استشفَّ جوهرها بأنها من رب العالمين. فَخُذْ بيديك هذا الميزان، ثم اعرِفْ بها مَن صدَّقَ ومانَ، ولا تَتَّبعْ سبل المفترين.

وهذا آخر ما أردنا من إبراد المقدمة، وكتبناها لإرادة النظام في الرسالة، وقد وعيَتَ ما قصصنا عليك من الأدلة، ففكَّرْ فيها واجتنِ ثرة البراعة، واحكُمْ بما أراكَ الله ولا تكنْ كالمتجاهلين. ولا يختلُجْ في قلبكَ أن العربية قد حُقِّرَتْ في أعين سُكَّان هذه البلاد، وأن جواهرها قد رُمِيتْ بالكساد، فإن هذا من فساد أهل الزمان، وإن قُصُّوى بُغيتِهم طلبُ الصريف والعُقَيْان، وحُمَادَى هِمَتِهم هَوَى الموائدِ والجِفانِ، وإنهم من المفتونين. وإنِّي لما أردتُ أن أنضَدْ جواهرَ الكلام، وأسلُكها في سَمْطِ الانتظام، أُلْقَيَ في رُوعيَّ أن أكتبهَا في هذه اللهجَة، ولا أُخْفِيَ بروقها في البرقة الهندية، وأسْرَحَ النواظرَ في النواضر الأصلية.